ملخص

عني هذا البحث بدراسة مراثي أبي بحر صفوان بن إدريس التجيبي في الحسين رضي الله عنه وآل البيت الكرام، وقد اقتضت طبيعة البحث أن ينقسم إلى : مقدمة، تناولت أهمية الموضوع، ودوافع اختياره، وخطته، ومنهجه، وتمهيد يدور حول حياة الشاعر ومنزلته ونتاجه الأدبي، تلاه الفصل الأول، وتضمن التحليل الأدبي للمحاور الموضوعية التي شكلت هذه المراثي، ثم الفصل الثاني، وتضمن الحديث عن الخصائص الفنية، وأهم عناصرها : الأفكار والمعاني، والألفاظ والأساليب، والخيال والتصوير، والموسيقا، أعقب ذلك خاتمة تضمنت أهم نتائج البحث، ثم فهرس للمصادر والمراجع، وآخر للمحتويات.

الكلمات المفتاحية :. حسينيات . أبو بحر التجيبي . . صفوان بن إدريس . . هجاء بني أمية . . مدح الحسين . . المرثية . الخصائص الفنية . الأفكار والمعاني .. الخيال والتصوير. الموسيقا.

summary

This research concerned with the study of the lamenations of Abu Bahr Safwan bin Idris al-Tujaibi in Hussein، may God bless him and the family of the house، and the nature of the research required to be divided into: introduction، addressed the importance of the subject، the motives of his choice، his plan، and his approach، and a preface revolving around the life of the poet and his status and literary production، followed by the first chapter، and included the objective literary analysis of these topics، then the second chapter، and included the talk about artistic characteristics، Its most important elements: ideas and meanings، words and styles، imagination and photography، and music، followed by a conclusion that included the most important search results، then an index of sources and references .

Keywords: Hosseinias Abu Bahr al-Tjibi Safwan Bin Idris Satire Bani Amaya Al-Hussein praised the artistic characteristics of ideas and meanings.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وإمام المرسلين سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد

فلا يزال شطرٌ عظيمٌ من تراثنا الأندلسي تعاني أضابيره ومخطوطاته غربةً وضياعًا في بلاد أجنبية عنه وعن قومه، يتحرق شوقًا إلى جهود مخلصة من أبناء منتجيه وأحفادهم من العرب والمسلمين كي يتحرر من قيد الأسر، ويئوب إلى تربته العربية الأصيلة التي حرم منها عقودًا طويلة، ليسقى بمائها الفرات، ويتنسم أجواءها النقية، فتعود إليه الحياة من جديد.

وقد توافر لهذا التراث الأدبي بفضل الله . عز وجل . عدد من الباحثين المخلصين الذين ذللوا الطرق، ومهدوا الصوى، حتى أصبح طريق الوصول إليه لاحبًا أو شبه لاحب، فحققوا كثيرًا من مخطوطاته، ونشروا كثيرًا من أسفاره ومصنفاته، سواء في الأعلام أو البلدان أو الشعر أو النثر...، ولكن هذا النتاج الشعري والنثري لا يزال بعد في حاجة إلى دراسات عديدة، تعمل على تحليله من شتى الجوانب، وإظهار القيم الجمالية التي توافرت له موضوعيًّا وفنيًّا، حفاظًا على هذا التراث الثمين، وإبرازًا لوجهه المشرق الأصيل، وتقديرًا لجهود الأساتذة الباحثين الذين لا يألون جهدًا في التفتيش والتنقيب عن مخطوطاته والاعتناء بها وتحقيقها ونشرها .

ومن ثم كان هذا البحث خطوة في هذا الطريق، ومحاولةً لدراسة لون من الشعر عند واحد من شعراء الأندلس المبرّزين، وهو أديب الأندلس أبو بحر صفوان بن إدريس التجيبي .

وقد دفعني إلى دراسة هذا الموضوع عدة أمور، أهمها :

١ . الصدق الواقعي والفني الذي تميز به الشاعر في تصوير مشاعره وأحاسيسه تجاه الحسين وآل البيت.

٢ . فحولة صفوان بن إدريس الشعرية، وإطراء شعره والثناء عليه من قبل كثير من جهابذة عصره، والثراء الفكري والفني الذي تميزت به مراثيه في قتلى الطالبيين.

٣ . عفة هذا الرجل ودماثة خلقه التي انعكست على أشعاره .

٤ . اعتداله في تناول الموضوع، ونبذه التطرف والمغالاة التي نجدها في كثير من مراثي آل البيت لا سيما عند شعراء الشيعة.

وقد اقتضت طبيعة الموضوع أن ينقسم إلى فصلين، مسبوقين بمقدمة وتمهيد، ومتلوين بخاتمة، ثم ثبت بالمصادر والمراجع، وآخر للمحتويات .

تحدثت المقدمة عن أهمية الموضوع، ودوافع اختياره، وخطته، ومنهاجه، والدراسات التي سبقته.
وخصصت الفصل الأول للدراسة الموضوعية، والثاني للخصائص الفنية .
أما المنهج، فهو المنهج الوصفي بالإضافة إلى المنهج الفني .
ويعد هذا البحث خطوة ثالثة بعد بحثين : الأول : للأستاذ محمد بن شريفة، والمعنون بـ : أديب الأندلس أبو بحر التجيبي عمر قصير وعطاءٌ غزير، الذي جمع فيه ما وصل إليه من شعره ونثره ومعلومات عن حياته.
والثاني بعنوان : شعر صفوان بن إدريس، جمع ودراسة وتحقيق، للدكتورة / هالة عمر إبراهيم الهواري، قامت فيه بجمع شعره من كتاب الأستاذ ابن شريفة السابق، يسبق ذلك حديث قصير عن حياته، ويعقبه ترجمة لبعض الأعلام، وقد اعتمدت بشكل مطلق أو شبه مطلق على كتاب ابن شريفة السابق، بل ربما قامت بنقل الشعر فحسب، وهذا واضح من كثرة الأخطاء في الضبط والموجودة كما هي في كتاب الأستاذ ابن شريفة .
وأخيرًا، فإنني أحمد الله الكريم الفتاح الذي أعانني على كتابة هذا البحث، وإياه أسأل أن ينفع به وأن يكون خالصًا لوجهه الكريم .

تمهيد

حول الشاعر[١]

اسمه ونسبه : هو أبو بحر صفوان بن إدريس بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عيسى بن إدريس التُّجيبي المُرسيّ، ينتمي إلى بيت من البيوتات المشهورة في تُجَيْب بمدينة مُرْسِية[٢] في العهد الإسلامي .

مولده ونشأته: في هذا البيت التجيبي المحض ولد صفوان سنة٥٦١هـ، وكان بِكْر أبويه، فنشأ نشأة ترفة في كنف بيتهم التجيبي المشهور.

ثقافته وحبه للأدب :

حفظ القرآن الكريم وجوّده، ثم درس كتب اللغة والنحو الأدب على يد ثلة من أبرز أساتيذ عصره، منهم والده، وخاله، وأبو رجال ابن غلبون[٣]، وأبو عبد الله ابن حميد[٤]، وأبو القاسم ابن حبيش[٥].

وحبب إليه الأدب، فانصرف إليه، وانشغل به عن الفقه الذي عُرف به أهله، وجمعته صداقات طيبة بفحول الشعراء في عصره، وشهدوا له بالتفوق والنبوغ، كابن حريق البلنسي، وابن مغاور الشاطبي، وابن مرج الكحل، إضافة إلى الكثير والكثير من الأصدقاء الذين تعرف عليهم خلال رحلاته

---

(١) انظر : أديب الأندلس أبو بحر التجيبي . تأليف / محمد بن شريفة . ط١ . ١٤٢٠هـ . ١٩٩٩م، ص ٩ . ٩٠ .

(٢) مُرْسِيَة : بضم فسكون فكسر ففتح، مدينة بالأندلس، وهي قاعدة تُدْمير ، بناها الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، وتقع على نهر كبير يسقي جميعها ، ولها جامع جليل وأسواق عامرة وحمامات ، ولها حصون وقلاع وقواعد معدومة المثال(انظر : الروض المعطار في خبر الأقطار. تأليف/محمد بن عبد المنعم الحِمْيري . تحقيق د/ إحسان عباس . مكتبة لبنان . بدون . ص ٥٣٩ ، ٥٤٠).

(٣) أبو رجال بن غلبون الكاتب ، من أهل مرسية ، أخذ ببلده عن أبي جعفر ابن وضاح، ورحل إلى أبي إسحاق ابن خفاجة فحمل عنه ديوان شعره، وكان أديبًا متظرفًا بليغًا متصرفًا ينظم وينثر، تأدب به أبو بحر صفوان بن إدريس، وتوفي سنة٥٨٩هـ(انظر: التكملة لكتاب الصلة لابن الأبّار القضاعي البلنسي . تحقيق د/ عبد السلام الهراس . ج١ . دار الفكر . بيروت . لبنان . ١٤١٥هـ . ١٩٩٥م . ص٢٦٢، رقم ٩٠٢).

(٤) محمد بن جعفر بن أحمد بن خلف بن حَميد بن مأمون الأموي ، الإمام المقرئ العلامة، ولد ببلنسية سنة ٥١٣هـ ، وتنقل بين كثير من بلدان الأندلس طلبًا للعلم، وقد علِم بالعربية وأقرأ وحدّث، وكان حميد السيرة ، مرضي الطريقة، وأوطن مرسية بآخر عمره حتى وافته المنية سنة٥٨٦هـ (انظر : السابق . ج٢ . ص٦٢، ٦٣ . رقم١٧٥).

(٥) عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن يوسف ابن أبي عيسى الأنصاري، يعرف بابن حبيش وهو خاله، ويكنى أبا القاسم، ولد بألمرية سنة٥٠٤هـ ،وأصله من شارقة عمل بلنسية، تنقل بين عدد من بلدان الأندلس طلبًا للعلم، حتى صار عالمًا بالقراءات، والفقه، والعربية، والأدب، والحديث، والتاريخ، والرجال، وأيام العرب...لا يجاريه في علمه أحد بالأندلس، وكان خطيبًا فصيحًا بليغًا ثقةً، صدوقًا، وكان آخر الأئمة المحدّثين بالمغرب، وتوفي بمرسية سنة٥٨٤هـ ، وكاد يهلك أثناء تشييعه ناسٌ من كثرة الزحام(انظر: السابق . ج٣. ص٣٤. ٣٦ . رقم٩٣).

المختلفة في المغرب والأندلس، وقد وصفه لسان الدين ابن الخطيب فقال:" كان أديبًا، حسيبًا، جليلاً، أصيلاً، ممتعًا من الظرف، ريان من الأدب، حافظًا، حَسَن الخط، سريع البديهة، ترف النشأة، على تصاون وعفاف، جميلاً، سريًّا، سمحًا، ذكيًّا، مليح العشرة، طيب النفس، ممن تساوى حظه في النظم والنثر على تباين الناس في ذلك"(١).

نتاجه الأدبي :

مع تقدمه في الشباب جاد شعره ونثره، ومن جيد نثره رسالة سماها " شرك العقول ومسرح الأنس المعقول"، ورسالة " التعريس والارتحال"، ورسالة " عنوان التصريح عن الود الصريح، وميزان التصحيح للعهد الصحيح"، ورسالة" الزند الواري في الرد على الناقد المتواري"، ورسالة في المفاخرة بين البلدان الأندلسية، ومقامة، وله تآليف أدبية منها كتاب " زاد المسافر، وغرة مُحيا الأدب السافر"، وكتاب " أجناس التجنيس"، وكتاب " الغيث العارض"، وغيرها، وقد جمع شعره ونثره في كتابين أسماهما " الرحلة" و" العجالة" قيل إنهما لا كِفاء لهما، وله ديوان شعر مشهور بالمغرب(٢)، قيل إنه أفرد منه مجلدة في أهل البيت، ولم يصلنا حتى الآن من هذا الفيض الغزير إلا النزر اليسير .

بواعث نظم الحسينيات(٣) :

يمكن القول إن حياة أبي بحر تنقسم إلى فترتين : الأولى فترة الطفولة والشباب والتكوين العلمي، وتبدأ منذ مولده عام ٥٦١هـ حتى عام ٥٨٤هـ، والثانية فترة العمل والتنقل والزواج والأولاد، وهي من٥٨٤هـ وحتى وفاته عام ٥٩٨هـ .

وقد عانى كثيرا من قلة العمل خلال هذه الفترة الأخيرة' وروى ابن الزبير في صلة الصلة أن " أبا بحر المذكور كان له بنتان قد بلغتا حد التزويج' ولم يكن له شيء يجهزهما به أو إحداهما، فرحل إلى مراكش وقصد بها دار الإمارة مادحا ومستميحا، فما تيسر له شيء من أمله، ولا أثّر له ما روّاه وأعده من عمله، ففكر في خيبة قصده' إلى أن ذكرته خطرة إيمانية ابتعثتها عزيمة دينية، وقال :

---

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة . تأليف لسان الدين ابن الخطيب . شرح وضبط وتقديم أ.د/يوسف علي طَوبّل . دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . ط١.١٤٢٤هـ . ٢٠٠٣م . ج٣. ص٢٦٦.

(٢) انظر : معجم الأدباء لياقوت الحموي الرومي . تحقيق د/إحسان عباس . دار الغرب الإسلامي . بيروت . لبنان . ط١ . ١٩٩٣م . ج٤. ص١٤٤٩، رقم ٦٠٣.

(٣) اشتهر أبو بحر التجيبي بكثرة مراثيه في الحسين،ولكنه لم يصلنا منها سوى خمس،وردت في الكتاب الذي جمع شعره وهو: شعر صفوان بن إدريس . جمع ودراسة وتحقيق د/هالة عمر إبراهيم الهواري . كلية الآداب . جامعة حلوان . إصدارات مركز البابطين لتحقيق المخطوطات الشعرية برقم ٢٢ . دار الوفاء . الطبعة الأولى . ٢٠١٢م. وتقع هذه المراثي في الصفحات:٣١، ٨٤، ١٠٠ ، ١٢٨ ، ١٣٥ على الترتيب .

لو كنت أملت جهة الله تعالى ومدحت المصطفى صلى الله عليه وسلم وآل بيته الطاهر لبلغت أملي بمحمود عملي، ثم استغفر الله تعالى من اعتماده في توجهه الأول، وعلم أن ليس على غير الثاني من معول، فلم يك إلا أن صوب نحو هذا المقصود سهمه، وأمضى فيه عزمه، وإذا به قد وُجِّه عنه وأُدخل على الخليفة، وسأله عن مقصده، فأخبره مفصحًا به، وسأله كم أمل لذلك، وأنفذه له، وزاد عليه، وعرفه أن ذلك لرؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم بقضاء حاجته، فانفصل رحمه الله موفى الأغراض، حين صمم على الإقلاع عن عرض هذه الفانية والإعراض، واستمر في رثاء أهل البيت، واشتهر به رحمه الله "[١].

وقد نقل ابن الخطيب في الإحاطة[٢]والمقّري في نفح الطيب[٣]هذه الحكاية ولكنهما ذكرا أن الأمر كان يتعلق بجهاز بنت واحدة .

وذكر محمد بن شريفة أن هذه الرواية رغم ورودها في عدة مصادر فإنها لا توضح إن كانت هذه بداية رثاء صفوان آل البيت، أم أنه رثاهم قبل ذلك، ويدعم شكوكه بأن أهل شرق الأندلس كانوا يقيمون المآتم في عاشوراء[٤].

وربما كان من بواعث رثاء صفوان آل البيت رضوان الله عليهم أيضًا ولع أدباء شرق الأندلس بأشعار الشريفين الرّضيَ والمرتضى وتلميذهما مهيار الديلمي، فلم ينفرد أبو بحر التجيبي برثائهم، بل حذا حذوه العديد من شعرائهم[٥].

وفاته : توفي صفوان بن إدريس عام ٥٩٨هـ .

---

(١) كتاب الصلة لابن بَشكُوال(ت٥٧٨هـ)ومعه كتاب صلة الصلة لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم الغرناطي(ت٧٠٨هـ) . تحقيق/شريف أبو العلا العدوي . المجلد الثالث(كتاب صلة الصلة) . مكتبة الثقافة الدينية . ط١. ١٤٢٩هـ . ٢٠٠٨م . بور سعيد، القاهرة . ص٦٢، رقم ١١٨.

والخليفة المذكور،هو أمير المؤمنين يعقوب المنصور ابن يوسف بن عبد المؤمن بن علي،خليفة الموحدين، العادل، المجاهد، الذي أقام أحكام الدين، ولي بعد وفاة أبيه سنة٥٨٠هـ، وهو صاحب وقعة الأرَك المشهورة التي هُزم فيها الصليبيون شر هزيمة سنة٥٩١هـ ، وكانت وفاته سنة٥٩٥هـ (انظر : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب . تأليف الشيخ أحمد بن محمد المقّري التلمساني . تحقيق د/إحسان عباس . المجلد الرابع . دار صادر . بيروت . ١٣٨٨هـ . ١٩٦٨م . ج٤ . ص٣٨٠وما بعدها).

(٢) انظر : الإحاطة . ج٣ . ص٢٧٥،٢٧٤.

(٣) انظر : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب . ج٥ . ص ٦٩.٦٨.

(٤) ينظر :أديب الأندلس . ص٨٦.

(٥) ينظر : السابق . ذاتها .

الفصل الأول
الدراسة الموضوعية

كان مقتل الحسين . رضي الله عنه وعن آل البيت أجمعين . في العاشر من المحرم سنة٦١هـ، وقد وقعت هذه الحادثة العظيمة على أرض كربلاء التي سيّر يزيد بن معاوية ابن أبي سفيان إليها جيشًا بقيادة عمر بن سعد بن أبي وقاص، فقتلوا الحسين ورهطًا كبيرًا من الهاشميين الذين كانوا معه، وسبوا نساءهم وأبناءهم، وأرسلوا رأس الحسين . رضي الله عنه . إلى يزيد بن معاوية حتى يشتفي بمرآه .

وكان مقتل الحسين . رضي الله عنه . حدثًا مدوّيًا زلزل أفئدة المسلمين في كل أقطار الأرض في مختلف العصور وحتى يومنا هذا، وكانت صدمة المسلمين بمقتله عظيمة إلى حدٍّ يجعلها تجل عن التصور، ولا غرو ؛ فهو سبط رسول الله . صلى الله عليه وسلم . وسيد شباب أهل الجنة، وعترة آل البيت، كذلك فلم يكن مقتله بأيدي المشركين أو بأيدي أعداء الإسلام في أحد الفتوحات، بل كان بيد مسلمة موحدة مؤمنةٍ بالله ربًّا وبجده . صلى الله عليه وسلم . نبيًّا، عالمةٍ بمنزلة الحسين . رضي الله عنه . وفضله على سائر الخلق، كبيرهم وصغيرهم، قويهم وضعيفهم، عامتهم وسامّتهم، مسلمين وغير مسلمين ... وعلى الرغم من ذلك كله فإنها أقدمت على سفك دمه الشريف' حرصًا على الاستئثار بالحكم دونه، وإنكارًا لحقه الأصيل في تولي خلافة المسلمين.

وقد خط مقتلُ الحسين ومن معه من آل البيت في كتاب التاريخ صفحةً من أجل صفحاته دمويةً وبشاعةً، كما واكب هذه الحادثةَ العظيمة سيلٌ من القصائد والمراثي الشعرية التي غصت بها دواوين الشعراء على مر العصور، وكان أبرز ما يميز مراثيهم في الحسين رضي الله عنه صدق مشاعرهم في الحزن عليه ؛ نظرًا لما له من مكانة دينية رفيعة؛ إذ إنها مرتبطة بمكانة جده رسول الله . صلى الله عليه وسلم . في النفوس ؛ فهو سبطه وبضعة منه.

ولكنّ مِن هؤلاء الشعراء مَن غلبه الهوى، فشطّ في الرأي، وقال منكرًا من القول وزورًا، وذلك مثل كثير من شعراء الشيعة، ومنهم مَن كان سمته عفةَ اللسان، والاتزانَ في التناول، فلم يجاوز القصد، ولم يغلبه الشطط وقد كان أبو بحر صفوان بن إدريس التجيبيُّ المُرسيُّ الأندلسيُّ (٥٦١هـ ـ٥٩٨هـ)من هذا النوع الثاني من الشعراء' فكانت مراثيه تفيض لوعةً وأسىً وحزنًا وصدقًا، ورغم ذلك فإنه لم يجاوز حد الاعتدال.

ويمكن تقسيم مراثي صفوان في الحسين رضي الله عنه على أساس المحاور الموضوعية التي تنازعتها إلى خمسة محاور، وهي :

١ . الحزن والأسى .

٢ . هجاء بني أمية وتوعدهم .

٣ . موقف الرسول وآل البيت والراشدين.

٤ . موقف الشاعر من يوم كربلاء .

٥ . مدح الحسين .

الحزن والأسى :

من الطبعي أن تشتمل قصيدة الرثاء على ما يعبر عن حزن الشاعر وأساه لفقد مرثيِّه، وتعداد مناقبه وخصاله الحميدة، وهجاء قتلته، وتبدل حال أهله بعد فقده ... إلى غير ذلك من المعاني التي تتميز بها قصيدة الرثاء بشكل عام، ولكن مراثي صفوان بن إدريس في الحسين رضي الله عنه وآل البيت كان لها شأن خاصّ، فعلى الرغم من اشتمالها على جل المعاني المعروفة في قصيدة الرثاء التقليدية فإنها تميزت بغلبة الشعور بالحزن والأسى على سائر المعاني الأخرى التي اشتملت عليها من مديح أو هجاء...، حتى أصبح هذا الحزن هو الملمحَ الأكثر بروزًا وظهورًا في حسينياته بين سائر الملامح، ومثلت أبيات الحزن حوالي ثلث هذه المراثي تقريبًا، وربما يزيد .

هذه الكثرة قد يمكن تفسيرها بعدة أمور :

أولها : أن المرثي ليس شخصًا عاديًّا، صديقًا أو قريبًا أو سيدًّا أو حتى سلطانًا، ولكنه شخص يجمع إلى صفاته الأخلاقية الفذة مكانة دينية مقدسة، فهو سبط رسول الله . صلى الله عليه وسلم . وبضعة منه، وابن فاطمة الزهراء وعليٍّ . رضي الله عنهما .، فقد حاز الشرف من أطرافه، وتمكنت له المحبة في قلب كل مسلم من أقصى الأرض إلى أقصاها، فهو جدير بأن يحزن عليه ويُرثى باعتبار قرابته من كل آل البيت فردًا فردًا وأولهم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والثاني : استحالة عاطفة الحزن على مصرع الحسين ومن معه إلى لون من التأمل الهادئ؛ فالعهد بالحادث قد أصبح بعيدًا، ونغمة الحزن في رثاء الشخص حديث الوفاة تكون أكثر هياجًا، وأشد صخبًا، وأقصر نفسًا، وأسرع إيقاعًا منها في رثاء الشخص الذي توفي منذ أمد بعيد، حيث تجذر الحزن، وهدأ الإيقاع، واستُجمعت النفس المستطارة الثكلى، وأتيحت للشاعر فرصة تأمل مظاهر الكون بعين مكلومة بعد رحيل المرثي، وتصوير وقع الفاجعة عليها، فيكون تدفق الحزن إلى القصيدة قليلاً قليلاً، شيئًا فشيئًا، ولكنه يكون أكثر عمقًا، وأبلغ أثرًا، وأوسع انتشارًا في مطاوي النص.

والثالث : أن الأولوية لم تعد لهجاء بني أمية وذمهم والقدح في دينهم وعرض مثالبهم في الجاهلية والإسلام، بل إن الحزن أصبح فارس الميدان الآن بعد تطاول الأزمان على هذا الحادث العظيم، وهجاء بني أمية أصبح يأتي في المقام الثاني أو الثالث ...

الرابع :إن حسينيات صفوان لم تنظم تأثرًا بمعارك سياسية أو عقدية مثل كثير من القصائد التي نظمت إبان الفترة التي قتل فيها الحسين، وليس معنى ذلك افتقار هذه الأخيرة إلى الصدق العاطفي، ولكن القصائد المتأخرة زمنًا ربما تكون أغنى وأحفل بالتعبير عن الحزن على الحسين ؛ نظرًا لعدم اصطباغها بغرض سياسي أو عقدي آخر .

الخامس : صدق عاطفة الشاعر في رثاء الحسين رضي الله عنه، وإخلاصه واستسلامه لحزنه عليه' وكأن الشاعر قد وجد في إخلاصه لهذا الحزن خلاصًا ومتنفسًا لحزنه الآخر بسبب عجزه عن تجهيز بناته، وكأن لسان حاله يقول : وداوني بالتي كانت هي الداء .

ويغلب على صفوان استهلال حسينياته بالتعبير عن هذا الحزن، مثل قوله في مطلع إحداها:

إذا جـــادت دمـــوعي فـــي انتحـــاب فمـا دعـوى الغمـام فـي الانسـكاب[1]

وحـــق لـــي البكـــاء فـــإن حزنـــي يثيـــر الـــدمع فـــي جفـــن الســـراب

وأيـــن لـــي العـــزاء وقـــد تـــردى فَـــراش الصـــبر فـــي نـــار المصـــاب

وفي مطلع أخرى :

انـــدُب الطـــفَّ وسِـــبط المصـــطفى بمـــراثٍ هـــي أســـرى مِـــن "قِفـــا"[2]

لا تـــرُم ضـــوءَ هُـــدىً مـــن بعـــده فســـراجُ الهـــدْي بـــالطف انْطفـــا

ومن الملحوظ في هذه القصيدة التفات الشاعر إلى التراث الشعري : ففي البيت الأول من القصيدة يشير إلى معلقة امرئ القيس ذائعة الصيت التي مطلعها :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسِقط اللوى بين الدَّخول فحَوْمل

عن طريق الكلمة الأولى فيها (قفا)، وذلك في سياق تأكيده على أن مراثيَ الحسين . رضي الله عنه . ستكون أعظم سيرورة منها، لا غرورًا وتعظيمًا للراثي (لنفسه)' ولكنْ تعظيمًا للمرثيّ(الحسين رضي الله عنه).

وقد يمزج الحزن بإرسال التحية والسلام إلى منازل آل البيت، يقول في مطلع إحدى حسينياته:

ســـلامي وإلمـــامي وصـــوبُ بكـــائي علـــى معهَـــدٍ للســـادة النَّجَبـــاء[3]

تَـــوى أهلُـــه مـــن بعـــد طـــول ثَـــوَاء أناديـــه لـــو أصـــغى لطـــول نـــداء[4]

ألا عم صباحًا أيها الطللُ البالى

---

(١) القصيدة بائية ، من بحر الوافر ، وهي موجودة في : شعر صفوان بن إدريس . ص٣١ . ٣٤.

والشطر الثاني من البيت الأول مكسور ، وقد ذكرت محققة شعره أن هذه القصيدة أولى مراثيه في الحسين . رضي الله عنه . ، ولكنني لا أعتقد أن هذا هو السبب في هذا الخطأ؛ فهي وإن كانت أولى مراثيه إلا أنها ليست أولى قصائده.

(٢) شعر صفوان بن إدريس . ص٨٤ ، من بحر الرمل .

(٣) شعر صفوان بن إدريس . ص١٣٥، وهي مسمطة من بحر الطويل، خالف الشاعر بين روي أدوارها، بينما كان عمود المسمط فيها موحد الروي ، وهو عبارة عن أشطار من قصيدة امرئ القيس التي مطلعها : ألا عم صباحًا أيها الطلل البالي ... ويطلق على هذه الظاهرة التذييل ، وسيأتي الحديث عن ذلك في الشق الفني من البحث.

(٤) التّوَى : مقصورٌ ، الهلاك ، وذَهاب مالٍ لا يُرجى ، من توِيَ يتوَى توىً ، وطيّئ تقول في الماضي: توَى (انظر : اللسان : توا).

ولكن تعبيره عن أساه وحزنه يأتي في تضاعيف حسينياته كثيرًا أيضًا، مثل **قوله** :

على مثل ما أمسي من الهم أصبحُ زناد فؤادي باللواعج يَقدحُ[١]

ولو أن قلبي للتجلد يَجنحُ لفاضت جفوني بالسواكب تَطفحُ

على النحر حتى بلّ دمعي مِحملي

وقوله[٢]:

أقول لحزنٍ في الحسينِ تأكّدا تملكْ فؤادي مُتهمًا فيه مُنجدا

ولو غيرُ هذا الحُزن راح أو اغتدى لناديتُه قبل الوصول مُردّدا

عقرتَ بعيري يا امرأ القيس فانزلِ

ومن الملحوظ في هذه النماذج أن الشاعر اتبع فيها نظام (التسميط' والتذييل)' ولكن الأشطار التي ذيل بها أبياته في مذيلاته هذه لم تكن من إنشائه، بل هي لامرئ القيس من معلقته المشهورة . ومن قصيدته التي مطلعها ألا عم صباحا ... . التي حرص الشاعر على أن يستثمر شهرتها من أجل شهرة قصائده، وولعًا من القوم بتقليد المشارقة' واعتزازًا بالموروث المشرقي[٣].

كما يلحظ أيضًا أنه قد وفق في الربط بين العبارتين الشعريتين (عبارته وعبارة امرئ القيس) في النموذج الثاني، ولكن محاولة الربط بينهما في النموذجين الأول والثالث كانت ظاهرة التكلف والافتعال وهذا أحد المآخذ على صفوان[٤] .

كما يلحظ في تعبيره عن حزنه كثرةُ حثِّ عينيه على البكاء، وتوعدهما إن ضنّتا به:

ويا عيني إن لم تستهلا ثكلتكما إذًا بين السِّخاب[٥]

---

(١) شعر صفوان بن إدريس . ص١٢٩ ، ومطلع هذه القصيدة :

خليليّ دعوى برّحت بخفاءِ خذا فانزلا رحلَ الأسى بفنائي

وهي من بحر الطويل ، وهي مسمطة أيضًا مثل السابقة تمامًا بتمام ، ولكن عمود المسمط فيها أشطار من معلقة امرئ القيس.

(٢) شعر صفوان بن إدريس . ص ١٣٠ . بحر الطويل .

(٣) سيأتي تفصيل الحديث عن هذه النقاط في الشق الفني من البحث .

(٤) سيأتي الحديث عن هذه النقطة في الشق الفني من البحث .

(٥) شعر صفوان بن إدريس . ص٣٢ . من الوافر ، وقد ورد في الديوان(السِّحاب) بالحاء المهملة والسين المشددة المكسورة ، ولا يستقيم المعنى على هذا ، وأعتقد أن الصواب ما أثبته (السِّخاب) بالخاء المعجمة: وهي قلادة تتخذ من قرنفل وسُكّ ومَحلَبٍ ليس فيها من اللؤلؤ والجوهر شيء ؛ فقد ألبست فاطمة . رضي الله عنها . ولدها الحسين إحداها وهو صغير كما ورد في صحيحي البخاري ومسلم(انظر: لسان العرب لابن منظور . تح/عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله ، هاشم محمد الشاذلي . دار المعارف . القاهرة . سخب ، وانظر : فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني . محب الدين الخطيب، محمد فؤاد عبد الباقي، قصي محب الدين الخطيب . دار الريان للتراث . القاهرة . ط١. ١٤٠٧هـ . ١٩٨٦م . ج ٤ . رقم ٢١٢٢).

وحث الآخرين على إسعاده بالدموع أو الدعاء:

ألا طـــربٌ يُقْلـــى ألا حـــزنُ يُصْـــطفى ألا أدمـــعٌ تُجْـــرى ألا قلـــبُ يضـــرمُ[1]

قفـــوا ســـاعدونا بالـــدموع فإنهـــا لَتَصـــغرُ فـــي حـــق الحســـين ويَغظُـــم

وقوله سابق الذكر : انْدُب الطف وسبط المصطفى ... الخ .

ويحسن هذا المعنى ويستملح إذا قرن بالدعوة إلى الصلاة والتسليم على رسول الله . صلى الله عليه وسلم . في ختام القصيدة، وذلك مثل قوله في ختام إحداها:

ومهمـــا ســـمعتم فـــي الحســـين مراثيًـــا تعبـــرُ عـــن محـــض الأســـى وَتُتـــرجم[2]

فَمُـــدوا أكـــفَّ المُســـعدين بـــدعوةٍ وصـــلوا علـــى جـــد الحســـين وســـلموا

ومن المعاني التي يرددها أثناء تعبيره عن أساه وحزنه أيضًا مخاطبة الحسين رضي الله عنه مستمنحًا رضاه، وسائلاً شفاعة جده صلى الله عليه وسلم بإخلاصه في رثاء سبطه' غيرَ طامع في عرَضٍ دنيويٍّ زائل .

ويحسن هذا المعنى ويجود أيضًا عندما يختم به الشاعر مرثيته، مثل قوله في ختام إحداها:

أمـــولاي الحســـين نـــداء عبـــدٍ عظـــيم الحـــزن فيـــك والانتحـــابِ[3]

منحتـــك مـــن بنـــات الفكـــر بكـــرًا أطـــار شـــرارَها زنـــدُ اكتئـــابي

عســـى الـــرحمن يقبلهـــا فتضـــحي شـــفاعة أحمـــد عنهـــا ثـــوابي

أما أكثر المعاني شيوعًا وترددًا أثناء حديثه عن حزنه فهو إظهار الجزع ونفاد الصبر' ودوام الهم والحزن، وتصوير عظمة هذا الحزن التي لو نزلت بجبل لدكته، أو بكوكب لأهوته ... وذلك مثل قوله :

خليلَـــيّ دعـــوى برّحـــت بخفـــاءِ خـــذا فـــانْزلا رحـــلَ الأســـى بفنـــائي[4]

وهُـــدّا مـــن الصـــبر الجميـــل بنـــائي قفـــا ســـاعداني لاتَ حـــينَ عزائـــي

قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزل

---

(١) شعر صفوان بن إدريس . ص ١٠٢ . بحر الطويل .

(٢) السابق . نفسها.

(٣)السابق . ص٣٤.٣٣، من الوافر .

(٤)السابق . ص ١٢٨ . بحر الطويل .

وقوله :

عَـــذِيرِيَ مِـــن رُزْءٍ بصـــبريَ يَعْبِـــث ومــن نبــأٍ فــي عقــدة الثّكــل يُنفــثُ[١]

وأيّ مُصـــابٍ عهـــدُه لـــيس يُنكـــثُ كـــأني إذا مـــا القـــوم عنـــه تحـــدثوا

لدى سمُرات الحى ناقف حنظل

وقوله[٢]:

علــى مثــل مــا أمســي مــن الهــم أصــبحُ زنـــاد فـــؤادي بـــاللواعج يَقـــدحُ

ولـــو أن قلبـــي للتجلـــد يَجـــنحُ لفاضـــت جفـــوني بالســـواكب تَطفـــحُ

على النحر حتى بلّ دمعى مِحملى

وقوله[٣]:

لِمثلـــك مـــن رُزْءٍ عصـــيتُ عزائيـــا وأعطيـــتُ أشـــجاني قِيـــاد بُكائيـــا

فلـــو أننـــي ناجيـــتُ طـــودًا يمانيـــا لأذرفَ دمعًـــا يفضـــحُ الغـــيمَ هاميـــا

فأنزلَ منه العُصْمَ من كل مَنزل

ويؤكد غير مرة أنه باقٍ على عهده في بكاء الحسين . رضي الله عنه . وآل البيت' دائم الحزن عليهم، بل إنه عقد بينه وبين الحزن عليهم عهدًا مبرمًا لا ينتقض إلى قيام الساعة' وهذا أرفع الأوسمة التي تقلدها، يقول[٤]:

عهـــودُ مُصـــابي أمنـــتْ يـــدَ فاســـخ ومُحكمـــه لا يتقـــي حكـــمَ ناســـخِ

فلـــو أشـــتكيه للنجـــوم البـــواذخِ لعالـــتْ بِنعـــي السّـــبط صـــرخةَ صـــارخِ

فقالت: لك الويلاتُ إنك مُرجلى

ويقول أيضًا[٥]:

سأقضـــي عليـــه لوعـــة ومراثيـــا فـــأفني حيـــاتي والبُكـــا والقوافيـــا

ولســـتُ أؤدي كُنْـــهَ مـــا فـــي اعتقاديـــا ومـــا المـــرءُ فـــي الـــدنيا ولـــو دام باقيـــا

بمُدركِ أطْرافِ الخطوب ولا آلِ

---

(١) شعر صفوان بن إدريس . ص ١٢٩ ، بحر الطويل .

(٢) السابق . ذاتها .

(٣)السابق . ص ١٣٤.١٣٥ . بحر الطويل .

(٤)السابق . ص ١٣٠ . بحر الطويل .

(٥)السابق . ص ١٤١ . بحر الطويل .

وفي موضع آخر:

إلـــى فئـــة الحـــق المبـــين تحيُّـــزي وبالحـــب فـــي آل الرســـول تَميُّـــزي[1]

أدلّـــتُ لهـــم صـــبري بُعَيْـــد تَعـــزُّزِ وأعطيـــتُ دمعـــي والأســـى وعـــدَ مُنجِـــزِ

بما احتسبا من لين مَسّ وتَسْهال

هجاء بني أمية وتوعدهم :

لعلنا لا نعدو الصواب إذا قلنا إنه لا تكاد تخلو مرثية من مراثي الحسين منذ القدم من ذمٍّ وهجاء لبني أمية جزاءً لما فعلوه بالحسين ومن ثبت معه من آل البيت في كربلاء، ولم يغرد أبو بحرٍ التجيبي بعيدًا عما غرّد به شداة الشعر من قبل، ولكنه في هجائه كان عفّ اللسان، فلم يشتُم ولم يقذع، بل كان هجاؤه محصورًا في بعض المعاني التي يغص بها قلب كل مسلمٍ معتدل.

وكثيرًا ما كان يتوجه بالخطاب إلى رءوس هذه الفتنة من بني أمية ورجالهم قادحًا متوعدًا، وعلى رأسهم يزيد بن معاوية الذي يؤكد صفوانُ حقدَه عليه وبغضه له جراء ظلم جنوده وقتلهم الحسين . ظمآنَ . وسبي نسائه وأبنائه :

يزيـــد فكـــم يزيـــد عليـــك حقـــدي رُزئـــتَ الفـــوز مـــن حســـن المـــآب[2]

قتلـــتم ســـبطه قتـــل الأعـــادي لقـــد وفقـــتم لســـوى الصـــواب

وســـقتم أهلـــه ســـوق الســـبايا أهـــذا مـــا قـــرأتم فـــي الكتـــاب؟

تشـــكى بالغليـــل فـــأوردوه ولكـــن كـــل مطـــرود الـــذباب

رَوِيـــتُمْ وَضَـــجَّ الســـبطُ فـــيكم تعطّشـــا فســـقّيتموه ظـــالمين دمَ الحشـــا[3]

ويؤكد أن بني أمية ورجالهم هم عصبة السوء التي لا يصفو لها قلب ولا يخلص لها وُدّ، وكيف لهم ذلك وهم عبيدٌ قد بغوا على سيدهم ؟ كما يقدح أيضًا في دينهم وإيمانهم، فكيف يكمل لهم دينٌ أو

---

(١) شعر صفوان بن إدريس . ص ١٣٧ . بحر الطويل .

(٢) رَزَأه مالَهُ : إذا أصاب من ماله شيئًا وأخذه وانتقص منه(اللسان : رزأ)، ورُزِئت الفوز... : أي مُنِعْتَه وسُلِبْتَه، يدعو على يزيد بسوء العاقبة .

(٣) شعر صفوان بن إدريس . ص١٣٤ . بحر الطويل . وضَحَّ : بالحاء المهملة هكذا وردت ، والضِّحُّ : بتشديد الضاد المكسورة : الشمس ، وقيل ضوءها ، ولم يذكر صاحب اللسان له فعلا على ضحَّ ولا على غيره، وأرجح أن الكلمة بالجيم المعجمة (ضجّ) من الضجيج وهو الصياح ، وهذا أوفق للسياق والمعنى وألْيَط (انظر : اللسان : ضجج ، ضحح) .

إيمانٌ وقد رضوا بما أسخط اللهَ وقتلوا سبط رسوله الكريم ؟ إن ما فعلوه فسوقٌ وفجورٌ وفسادٌ في الأرض :

قضى الله أن يقضي على القمر السُّها عصابةَ سُوءٍ زلزلتْ هضبةَ النهى[١]

فشعر حسينٍ في الدماء تموّها ترى الدمَ في تلك الذوائبِ مُشبها

عُصارةَ حِنّاءٍ بشيب مُرجّل

ألا رُبّ حقدٍ من صدوركمُ فشا فأغَرْبْتُهُ بصارم العضْبِ أرقشا[٢]

بجيد مُعمٍّ في العشيرة مُخولِ

إلى الله من عبدٍ بسيده بغى فغادره تحت العَجاج مُمَرّغا[٣]

ينادي رسولَ الله في أزمة الوغى أجرنيَ من باغٍ بعدوانه طغى

عليّ بأنواع الهموم ليبتلي

أبا خالدٍ والقدحُ في الدينِ غائظٌ أفي الحق أن تَحنو عليكَ الحوافظُ[٤]

وأنفسُ آل اللهِ هِيمٌ فوائظٌ سَمَتْ نحوها أحقادُهمْ والحفائظُ

سموَّ حَباب الماء حالاً على حالِ

رضيتَ عدوَّ الله واللهُ ساخطٌ بما فعلت في كربلاء المآقطُ[٥]

ألا بأبي تلك الدماءُ الغوابطُ وأنصارُها الأعلون عنها شواحطُ

بيثربَ أدنى دارها نظرٌ عالِ

---

(١) شعر صفوان بن إدريس . ص ١٣٤ . بحر الطويل .

(٢) السابق . ذاتها. .

(٣) السابق . ص ١٣٣ . بحر الطويل .

(٤) السابق . ص١٣٨ . من الطويل . وأبو خالد هذا هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية ، الخليفةُ، أبو خالد القرشي، الأموي ، الدمشقي ، توفي سنة٦٤هـ (انظر : سير أعلام النبلاء للإمام أبي عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن قايماز الذهبي(٦٧٣.٧٤٨هـ) . رتبه /حسان عبد المنان . بيت الأفكار الدولية . لبنان . ١٤٢٤هـ . ٢٠٠٤م . ج٣.رقم ٦٧٥١ ص ٤٢٣٠).

(٥) شعر صفوان بن إدريس . ص ١٣٧ . بحر الطويل ، والمآقط : جمع مأقِط بكسر القاف ، وهو المضيق في الحرب (اللسان : أقط).

أيــا فاســقًا قــاد الغــرورُ شــكائمَه فــأورد فــي نحــر الحســين صــوارمه[١]

تهيــأ ليــوم الحشــر تجــرعْ علاقمــه فمالــك منجــىً مــن خصــومة فاطمــهْ

وما إن أرى عنك الغَواية تنجلى

ومن رءوس هذه الفتنة أيضًا عبيد الله بن زياد بن أبي سفيان[٢]، الذي يسميه نجل الدعي، ويتوعده بسوء العاقبة والخسران المبين في الآخرة ؛ إذ إن ما أراقه لم يكن دمَ الحسين، بل هو دمُ الرسول صلى الله عليه وسلم.

ويــا نجــل الــدعيّ دعــيّ حــرب لقــد لُففــت نســلاً مــن كــذاب[٣]

نصــيبك مــن جنــان الخلــد فاهنــأ نصــيب أبيــك مــن صــدق انتســاب

قــدمت علــى الحســاب بيــوم شــرٍّ صــنعت بــه صــنيعًا للــذئاب

ولــيس دم الحســين أرقــت لكــن مزجــت دم الرســول مــع التــراب

وأحيانًا يخاطب عمر بن سعد بن أبي وقاص[٤] متوعدًا، وناعتًا إياه بالأشام الأبرص، ومؤكدًا أن الحسين لم يكن يقاتل حرصًا على ملكٍ أو دنيا، وإلا لما واجههم في قلة من رجاله، ولاستكثر من الخيل والرجال القادرين على أن يسوموا عمر بن سعد وجنودَه سوء العذاب، ولكن قتاله كان في سبيل الله نصرةً للحق.

فقل لابن سعدٍ والعصا عبدُ مَن عصى حَلَفــت إليــه وَيْــك أشــأم أبْرصــا[٥]

ولــو أنــه شــاء الخــلاص تخلّصــا وجــدّلكم فــوق الحصــى عــدد الحصــى

وليس بذي سيفٍ وليس بنَبّال

---

(١) السابق . ص ١٣٢ . بحر الطويل .

(٢) عبيدَ الله بن زياد بن أبي سفيان ، ممن شاركوا في قتل الحسين ، والدّعِي أبوه زيادُ الذي كان معروفًا بزياد ابن أبيه بسبب رفض أبي سفيان الاعتراف بأبوته له، فلم يزل كذلك حتى اعترف به سيدنا معاوية بن أبي سفيان أخًا له من أبيه (انظر : الأعلام . خير الدين الزركلي . دار العلم للملايين . بيروت . لبنان . ط١٥. أيار /مايو . ٢٠٠٢م . ج٣ . ص٥٣).

(٣) شعر صفوان بن إدريس . ص٣٣، من الوافر .

(٤) عمر بن سعد بن أبي وقاص ، أميرُ السّرِيّة الذين قاتلوا الحسين رضي الله عنه ثم قتله المختار. وكان ذا شجاعةٍ وإقدام . روى له النسائي . قُتل هو وولداه صبرًا . توفي سنة ٦٥هـ (سير أعلام النبلاء . ج ٢ . رقم ٤٢٣٣ ص ٢٩٠١).

(٥) شعر صفوان بن إدريس . ص ١٣٩ . بحر الطويل .

ثم يتوجه بالخطاب إلى آل حرب عامةً، حيث ينعتهم بالغدر وقلة الوفاء وجفاء رسول الله . صلى الله عليه وسلم . ويتوعدهم ببوار السعي في الدنيا وجهنمَ دارًا في الآخرة :

أمـــةَ الطغيـــان مـــا أجـــرأكم! مـــا أقـــلّ البـــرَّ فـــيكم والوفـــا!(١)

يـــا بنـــي حـــربٍ جفـــوتم جـــدَّه أرســـولُ الله يُجـــزى بالجفـــا؟(٢)

يـــا بنـــى حـــربٍ ولا عـــذر لكـــم أأطيـــلُ القـــولَ فـــيكم أم كفـــى؟

هـــم القـــوم أمـــا ســـعيهم فمُخيّـــبٌ مُضـــاعٌ وأمـــا دارُهـــم فجَهـــنم(٣)

ثم يوسع دائرة المتهمين بالتفريط بدم الحسين حتى يجعلها تشمل الأمة كلها، ولعله يقصد أهل العراق تحديدًا، فقد وثق بهم الحسين وخرج مطمئنًّا إلى نصرتهم له فخذلوه وتركوه وحيدًا أمام جحافل الأمويين، ولكن الخطب أجلُّ من أن تناط تبعته برقبة قوم دون غيرهم ومن ثم فإن الشاعر لم يستثن أحدًا من هذا الإثم:

كـــأنّي بمَـــن عـــادى الرســـولَ تجرُّمـــا ونـــادَى بنصـــر الأدعيـــاءِ وهَيْنَمـــا(٤)

وجَـــدَّ إلـــى حـــرب الحســـين وصـــمّما يُقـــاد إلـــى نـــار الوَقـــودِ مُـــذمّما

عليه القتامُ سيّئ الظن والبالِ

أيـــا أمـــة الطغيـــان مـــالكمُ حـــسٌّ عـــلامَ بنـــاءُ الـــدِّينِ إن هُـــدم الأسُّ(٥)

أتَرجـون إصـباحًا وقـد غابـت الشـمسُ وزلّ بكـم عـن ديـنكم ذلـك الـرجسُ

كما زلّت الصفواء بالْمُتَنَزّل

أمـــا كـــان فـــيكم مُنكِـــرٌ يـــوم ذلكـــا يقـــولُ وقـــد خـــاض الســـيوفَ الفواتكـــا(٦)

وباشـــر فـــي نصـــر الحســـين المهالكـــا لعمـــري لا ألقَـــى لـــك اليـــوم تاركـــا

ولو قطعوا رأسى لديكَ وأوْصالى

---

(١) السابق . ص٨٤ ، من بحر الرمل .

(٢) السابق . ص٨٥ ، من بحر الرمل .

(٣) السابق . ص ١٠٢ . بحر الطويل .

(٤) شعر صفوان بن إدريس . ص ١٣٨ . بحر الطويل .

(٥) السابق . ص ١٣٣ . بحر الطويل .

(٦) السابق . ص ١٣٨ . بحر الطويل .

وأحيانًا يؤكد أنه يرى مقاعد كل من ناجز الحسين . ومن ثم الرسول . العداء من النار رأي العين، وأن ذلك أيضًا مصير من خدعوه، ومن سفكوا دمه الشريف' ومن حرضوا على قتله، ومن اجترءوا على حمل رأسه إلى يزيد ليعبث بها وليخطوا بأيديهم الملوثة بدم الحسين صفحة من أجل صفحات التاريخ دموية وبشاعة، دالت فيها دولة الحق' وطغت وعتتْ دولة الباطل .

كـــأنّي بمَـــن عـــادى الرســـولَ تجرُّمـــا ونـــادَى بنصـــر الأدعيـــاءِ وهَيْنَمـــا[1]

وجَـــدَّ إلـــى حـــرب الحســـين وصـــمّما يُقـــاد إلـــى نـــار الوَقـــودِ مُـــذمّما

عليه القتامُ سيّئ الظن والبالِ

هُـــمُ خـــدعوه والكـــريمُ مُخـــدّعُ بمُختلَـــقٍ مـــا فيـــه للصـــدق مَطْمـــعُ[2]

وقـــال لهـــم ذو إفكهـــم وهـــو يســـمعُ ألـــم يأتـــهِ والرُّشْـــدُ بـــالغيّ يُـــدْفَعُ

بأن الفتى يهذي وليس بفعالِ

عصوا فـي احتمـال الرأس يـا ويـحَ مَن عصى وخلّـــوا حســـينًا بـــالنوى متقمَّصـــا[3]

لكـــي يُـــدركوا عنـــد ابـــن حـــربٍ تخلّصـــا كـــأن ســـنا رأس الحســـين علـــى العصـــا

منارة مُمسى راهبٍ متبتّل

فلمـــا اســـتطارت بيـــنهم شُـــعَلُ الـــوغى رغـــا فـــوقهم سَـــقْبُ الســـماء بـــلا رُغـــا[4]

وأصـــــبح ثرثـــــارُ الهدايـــــة ألثغـــــا وألســـنةُ البـــاغين يـــا ويـــل مَـــن بغـــى

يَقُلْنَ لأهل الحلمِ ضُلاّ بتَضْلال

---

(١) السابق . ص ١٣٨ . بحر الطويل .

(٢) شعر صفوان بن إدريس . ص ١٣٩ . بحر الطويل .

(٣) السابق . ص ١٣٢ . بحر الطويل .

(٤) السابق . ص ١٣٩ . بحر الطويل .

موقف الرسول وآل البيت والراشدين:

هذا أيضًا واحد من المحاور التي طالما تخيلها الشعراء وعبروا عنها في حسينياتهم، ولم يكن صدق صفوان وفحولته وثقافته لتغفل أمرًا كهذا، فقد حاول في العديد من المواطن أن يتخيل موقف الرسول . صلى الله عليه وسلم . وصحابته الأكرمين، وموقف سيدنا عليٍّ والسيدة فاطمةَ رضي الله عنهما من قاتل ولديهما فلذة كبديهما.

أما الرسول . صلى الله عليه وسلم . فقد خُيِّل لصفوان أنه كان سيذرف الدمع هتونًا' وسيضم الحسين إلى صدره، داعيًا الله . عز وجل . أن ينزل بقتلته أشد العذاب.

لـــــو رآه جـــــدَّه بيـــــنكم ظامئًـــا يُســقى الحســامَ المرهفــا[١]

لانْطـــوى فـــوق يديـــه ألمًـــا وتـــولى قـــائلاً واأســـفا

شـــاكيًا يستصـــرخُ اللهَ وقـــد قـــال يعنـــي مُقلتيـــه : انـــذرِفا

أتُـــرى أرضـــيتمُ خـــالقَكم يـــوم أذرفـــتم دمـــوع المصـــطفى؟

لـــو انّ رســـولَ الله يحيـــا بُعَيـــدهم رأى ابـــنُ زيـــادٍ أمَّـــه كيـــف تُعقَـــم[٢]

وأما أبوه علي بن أبي طالب صاحب الصولة والجولة، فكان سيترك الكلام لذي الفقار سيفه البتار الذي كان سيحصد الرقاب حتى تتدهده على الأرض مثل الأحجار' فلا كانوا سيظفرون بالغنيمة ولا بالإياب :

ولـــو لاقـــاك يومئـــذٍ أبـــوه عـــداك عـــن الغنيمـــة والإيـــاب[٣]

وســـلط ذا الفقـــار عليـــك حتـــى تـــوارى شـــمس ظلـــك بالحجـــاب[٤]

---

(١) السابق . ص٨٤ ، من بحر الرمل .

(٢) شعر صفوان بن إدريس . ص ١٠١ . بحر الطويل . وهمزة (أنّ) همزة قطع ، ولكنها وصلت للضرورة حتى لا ينكسر البيت ، ويستقيم الوزن ، وتستقيم تفعيلة (فعولن) .

(٣) السابق . ص٣٣، من الوافر ، وهو مأخوذ من المثل المشهور(رضيت من الغنيمة بالإياب)، يضرب مثلاً للرجل يشقى في طلب الحاجة حتى يرضى بالخلوص سالمًا(جمهرة الأمثال لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري . د/أحمد عبد السلام، أبو هاجر محمد سعيد بن بسيوني زغلول . دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . ط١. ١٤٠٨هـ . ١٩٨٨م . ج١ . ص٣٩٤).

(٤) اقتباس من قول الله . تعالى . " فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب" سورة ص ، آية ٣٢ .

ومثل موقف علي سيكون موقف الصديق أبي بكر وعمر وعثمان بل وسيدنا جبريل رضي الله عنهم أجمعين :

إذن صـــدق الصّـــدّيقُ حملـــةَ مُقْـــدِمٍ ومـــا فـــارق الفـــاروقَ مـــاضٍ ولَهْـــذَمُ[1]

وعـــاث بهـــم عثمـــانُ عَيْـــثَ ابـــن حُـــرّةٍ وأعلـــى علـــيٌّ كعـــبَ مـــن كـــان يُهْضـــمُ

وجَـــبَّ لهـــم جبريـــلُ أتْمـــكَ غـــاربٍ مـــن الغـــيِّ لا يُعْلـــى ولا يُتَســـنّم[2]

وكذلك سيكون موقف الشاعر لو كان حضر كربلاء :

ولـــو أن عمـــري فـــي ذُرى الـــزّمن ارتقـــى غـــداة تـــراءى الجمـــعُ بـــالجمعِ والْتقـــى[3]

وأجفـــلَ خـــوفَ المـــوتِ مَـــن كـــان حَقّقـــا لقلـــتُ وقـــد جـــدّ اليقـــينُ وصـــدَّقا

لِخيلىَ كُرّي كرّةً بعد إجفال

وضـــاحكتُ شـــوقًا والضـــراغمُ تعـــبِسُ وســـمرُ القنـــا بـــين الترائـــبِ كُـــنّسُ

حِمـــامي وبعـــضُ المـــوت رَوْحٌ مُـــنفّسُ ولـــم أنقلـــبْ أحمـــي حيـــاتي وأحـــرُسُ

على هيكلِ نهدِ الجُزارة جوّال

ولـــــو أنـــــي حضـــــرت بكـــــربلاءٍ إذَا حمـــد الحســـين بهـــا منـــابي[4]

إذَا لسَـــــقَيت عنـــــه الســـــيف ريًّـــــا ولـــيس ســـوى نجيعـــي مـــن شـــراب

أما الحسين رضي الله عنه فكان سيتوجه بالشكوى إلى جده الذي لا يوجد من هو أكرم على الله ولا أحنى على الحسين منه ليثأر وينتقم :

ألا إنـــــه يـــــومٌ علـــــى الطّـــــفِّ آزفُ بـــه نُكّـــرتْ لابـــن البتـــولِ معـــارفُ[5]

وســـــاعده قلـــــبٌ هنالـــــك واجـــــفُ ينـــادي ظـــلامَ الليـــل والنحـــرُ راعـــفُ

ألا أيها الليلُ الطويلُ ألا انجلى

---

(١) شعر صفوان بن إدريس . ص ١٠٢ . بحر الطويل . لهذم : سيف لهذم أي حاد (اللسان : لهذم).

(٢) جبَ : الجَب : القطع ، والتّامك : السَّنام ما كان ، وقيل هو السنام المرتفع ، وتمَك السنام يتمِك ويتمُك تموكًا وتَمْكًا : اكتنز وترّ ، وفي الصحاح أي طال وارتفع ، فهو تامك، والغارب : الكاهل من الخُف، وهو ما بين السَّنام والعُنق(اللسان : جبب . تمك . غرب).

(٣) شعر صفوان بن إدريس . ص ١٤٠ . بحر الطويل .

(٤) السابق . ص٣٣، من الوافر .

(٥) السابق . ص ١٣٣ . بحر الطويل .

أيـــا جَـــدّي المختـــارُ شـــملي مُمـــزّقُ بعُـــدوان قـــومٍ غَيـــرهم يتفـــرّقُ
وكيـــف تَحـــنُّ اليـــوم أم كيـــف تُشـــفِقُ قلـوبُ عِـدىً عـن موقـف الحـقِّ تَزهـقُ
كجُلمودِ صخر حطه السيل من علِ

ألا هـــل أتـــى المختـــارَ والحـــقُّ أشـــمخُ مقـــامُ حســـينٍ وهـــو بالـــدم يلطـــخُ[١]
ينـــادي بأهـــل روعهـــم لـــيس يُفـــرخُ وأشـــقى بنـــي حـــربٍ ينـــادي ويصـــرخُ
بآنسةٍ كأنها خطّ تِمثال
علـــى حـــين شـــمل المصـــطفى يتبـــدد وأيـــدي بنيـــه بـــالجوامع تُعقـــدُ
وأبشـــارُهم بالمرهَفـــات تُخَـــدّدُ وفـــي كـــل صـــدرٍ لوعـــة تتوقـــدُ
كمصباح زيتٍ فى قناديلِ ذَبَّال

أما فاطمة رضي الله عنها فسوف يتمزق فؤادها لوعةً وحسرة على حال ولديها اللذين قتل أحدهما مسمومًا والآخر عطشانَ مظلومًا، ومن ثم سوف تستغيث بأبيها رسول الله أن يستنزل عقاب الله على من فرق شمل أبنائها وذرياتهم، وسامهم ألوان الظلم وصنوف العذاب :

وآقبلـــت الزهـــراءُ قـــدِّس تربُهـــا تنـــادي آباهـــا والمـــدامع تســـجُم[٢]
تقـــول آبـــي هـــمْ غـــادروا ابنـــيَّ نهبـــة لمـــا صـــاغه قـــينٌ ومـــا مـــجّ آرقـــمُ[٣]
ســـقَوا حســـنًا بالسُّـــمِّ كأسًـــا رويَّـــة ولـــم يقرعـــوا سِـــنًا ولـــم يتنـــدموا[٤]
وهـــم قطعـــوا رأسَ الحســـين بكـــربَلا كـــأنهمُ قـــد آحســـنوا حـــين آجرمـــوا
فخَـــذ مـــنهمُ ثـــاري وســـكِّنْ جوانحًـــا وآجفـــانَ عـــينٍ تســـتطير وتســـجُم
آبـــي وانتصـــر للسِّـــبط واذكـــر مُصـــابه وغلّتَـــه والنهـــرُ ريّـــانُ مُفعـــمُ
وآســـرَ بنيـــه بعـــده واحتمـــالهم كـــأنهمُ مـــن نســـل كســـرى تَغنّمـــوا
ونَقّـرَ يزيـدٍ فـي الثنايـا التـي اغتـدت ثنايـاك فيهـا آيَّهـا النـور تَلـثِمُ

(١) السابق . ص ١٣٦ . بحر الطويل .
(٢) شعر صفوان بن إدريس . ص ١٠١ . بحر الطويل .
(٣) القين : الحدّاد ، وقيل كل صانع قينٌ ، والجمع أقيان وقيون ، والأرقم من الحيات : الذي فيه سواد وبياض (اللسان : قين رقم) .
(٤) هناك خلاف في كيفية وفاة سيدنا الحسن بن علي . رضي الله عنه . ، فبعض الروايات تفيد بأنه مات حتف أنفه ، وبعضها يقول إنه مات مسمومًا (انظر على سبيل المثال: الأعلام للزركلي . ج٢ . ص٢٠٠).

ومن الملحوظ أن صفوان قد أفسح في قصيدته لفاطمة مالم يفسح لغيرها، وسمح لها بالاسترسال والبوح . على لسانه . أكثر مما ترك لغيرها، وهذه لفتة بارعة من الشاعر؛ فحسرة الأم على ولدها تزيد على غيرها أضعافًا مضاعفة' وقدرتها على احتمال هذا الألم ضئيلة إلى الحد الذي قد تصاب معه بالوله أو الجنون، ومن ثم فهي أشد المكلومين حاجة إلى التنفيس عن الأحزان التي تجيش في صدرها، وبقدر عظم الألم تشتد الحاجة إلى الترويح بكثرة الحديث .

ثم يرتد حزن الشاعر إلى الاعتدال والتسليم التامّ بأمر الله الذي لا رادّ لقضائه' والذي يعلم السر وأخفى، وكل شيء عنده بمقدار .

ولكنهـــا آقـــدارُ ربـــي بهـــا قضـــى فـــلا يتخطـــى الـــنقضَ مـــا هـــو يُبْـــرمُ[1]

قضـــى اللهُ آن يَقضـــي علـــيهم عبيـــدُهم لتشـــقى بهـــم تلـــك العبيـــدُ وتُـــنقمُ[2]

<u>موقف الشاعر من يوم كربلاء :</u>

يبدو موقف الشاعر من يوم كربلاء متباينًا إلى حدٍّ قد يصل إلى التناقض، ففي بعض الأحيان تهيج ذكراه في نفسه مشاعر الحزن والتفجع والحسرة والتمزق إلى حد يتمنى معه الموت ليخلص مهجته المعذبة من هول ما تلاقي:

نجيـعُ حفيـد المصـطفى كيـف يُسـفك؟ وَرِقّ بنيـــه بعـــده كيـــف يُملـــك؟[3]

فيـــا كـــربلا والكـــربُ لـــي مُتملـــك آيكفيـــكِ منّـــي إن ذكرتُـــكِ مهلـــكُ؟[4]

---

(١) شعر صفوان بن إدريس . ص ١٠١ . بحر الطويل .

(٢) يشير إلى(المختار بن أبي عبيد) الذي تتبع قتلة الحسين حتى أبادهم وكان آخرهم (عمر بن سعد بن أبي وقاص) أمير الجيش الأموي في موقعة كربلاء ، وأرسل(إبراهيمَ بن الأشتر) لقتل (عبيد الله بن زياد) فالتقى الجيشان على نهر الخازر حيث قُتِل ابن زياد وحمل رأسه إلى الكوفة ثم إلى محمد ابن الحنفية أخي الحسين ، فكان ذلك جزاءً وفاقًا لقتلة الحسين رضي الله عنه (انظر : أدب الشيعة إلى نهاية القرن الثاني الهجري . د/ عبد الحسيب طه حميدة . الزهراء للإعلام العربي . مطبعة السعادة بمصر . ط٢ . ١٣٨٨هـ . ١٩٦٨م . ص ٤٩ . ٥٠) . والسياق وصحة المعنى يقتضيان أن يكون المقصودُ بـ (العبيد) الثانية ولاةَ بني أمية الذين قتلوا الحسين تشبيهًا لهم بالعبيد احتقارًا وسخريةً من تبعيتهم المطلقة للأمويين.

ولكن يبقى رفع الفعل (تنقمُ) المبني للمفعول بغير مسوغ ، بل هو واجب النصب لعطفه على منصوب . ولم تلحظ محققة شعر الرجل ذلك ، وأوردت مالا يحصى كثرة من الكلمات غيرها مضبوطة بشكلٍ خاطئ ، ونظرًا لهذه الكثرة اضطررت لإهمال التنبيه عليها، واكتفيت بتحري الصواب وإثباته في الأبيات ، وأعتقد أن محققة شعر صفوان تابعت محمد بن شريفة في كتابه(أديب الأندلس أبو بحر التجيبي) حذو النعل بالنعل والقُذَّة بالقُذَّة ، واتباع السابق دون تمحيص ليس عُذرًا لمُحقق .

(٣) شعر صفوان بن إدريس . ص ١٣١ . بحر الطويل .

(٤) وردت كلمة(متملك) مضبوطة بفتح اللام المشددة ، وعليه فإنها يمكن أن تكون اسم مفعول من (تملك) أو مصدرًا ميميًّا منه ، وعلى هذا فالمعنى أن الكرب مملوك له، ورغم غرابة هذا المعنى فإنه قد يكون مقبولاً إذا وضعنا في الاعتبار أن الشاعر يعد الحزن على الحسين دَينًا، ودِينًا، ووفاءً، وحقًّا، والأجود عندي أن تكون بكسر اللام اسم فاعل من (تملك)؛ لأن المعنى في هذه الحالة أنه مملوك للكرب والحزن، وهذا أدل على الاستغراق فيه .

وأنك مهما تأمري القلب يفعل

آيـــا حســـرتا يـــومَ انتـــأوا وتحمّلـــوا إلـــى كـــربلا مثـــوى الكـــروب تنقلـــوا

لِيُسْـبَوا علـى حكـم الضـلال ويُقتلـوا فيـا رُزْآهـم صـمّم ومثلـك يَفعـل

بسهميك فى أعشار قلبٍ مقتّل

أمـــا لعهـــود الهاشـــميين حـــافظٌ؟ فبـــالطّفِّ يـــومٌ للرســـالة غـــائظُ[١]

علـــى ثُكلـــه قلـــب الكـــريم مُحـــافظُ فيـــا مهجتـــي إنـــي علـــى السّـــبطِ فـــائظُ

فسُلّي ثيابي من ثيابك تَنسُل

ويجد المرء نفسه مجبرًا على التوقف طويلا أمام تعبيره(مثوى الكروب) الذي كنى به عن أرض كربلاء' هذا التعبير المخيف المشحون بمشاعر الرهبة والجزع والوحشة التي امتلأت بها نفس الشاعر تجاه هذا المكان الفظيع، فلم يصوره على أنه مكان عانى فيه آل البيت من كرب عظيم فحسب، بل جعله مثوى ومستقرًّا ومُقامًا لسائر الكروب على اختلاف أصنافها وألوانها ولكل الناس، وادعى شهرة ذلك حتى أصبح هذا الاسمُ هو الاسمَ الذي يعرف به بين الناس، فحري بالمار به أن تغشاه الرهبة والفرق منه، وأحرى به أن يتنكبه حتى لا يحل به كرب من كروبه الرهيبة الثاوية فيه.

ومثل هذا التعبير تمامًا كنايته عن كربلاء بـ(وادي المدامع) في القصيدة ذاتها قبيل البيت المذكور:

عزائـــي فـــي عشـــواءِ ثُكلـــي خـــابطُ وســـهدي إلـــى وادي المـــدامع فـــارطُ[٢]

وللقلـــب فـــي مهـــوى الوجيـــب مســـاقطُ تعـــدتْ شـــجونٌ فـــي القضـــايا قواســـطُ

علىّ وآلت حَلْفة لم تَحلّل

وفي أحيانٍ أخرى تضطرم مشاعر الحزن هذه وتتقد وتتوثب حتى تتأجج نارًا مشبوبة من شدة الغضب على هذا اليوم، والشاعر إذ يغمره هذا الطوفان من الغضب يَعُدُّ كل عناصر هذا اليوم مشاركةً في الجريمة، لا يستثني إنسانًا ولا جمادًا ولا شمسًا ولا جبلاً ولا أرضًا' فإنهم . وإن لم يقاتلوا في صفوف الأمويين . قد تخلوا عن الحسين وخذلوه رغم شهودهم مقتله، وهذا وحده جرمٌ كفيلٌ بشلالات الغضب المتدفقة عليهم من صدر الشاعر :

---

(١) شعر صفوان بن إدريس . ص ١٣١ . بحر الطويل .

(٢) السابق . ص ١٣١ . بحر الطويل .

آيـــوم الطـــف لا بوركـــت يومـــا جعلـــت الأســـد نهبـــا للكـــلاب[١]
جنابَـــك حيـــث طَـــلّ بنـــو علـــي آلا لا در درك مـــــن جنـــــاب[٢]
آلـــم تلحقهـــم فتـــذود عـــنهم وتَحصِـــب مـــن رمـــاهم بالهضـــاب[٣]
آلا يـــا يـــوم عاشـــوراء راجـــع جـــوابي لا قـــدرت علـــى الجـــواب
عـــلام تركـــت نـــور الله يطفـــا غـــداتك بالمهنـــدة العضـــاب
بنـــو المختـــار مـــاتوا فيـــك ذبحًـــا لقـــد ضـــحيت بـــالعلق اللبـــاب
آلـــم تقـــدر ثكلـــت علـــى انتصـــارٍ فتقـــذفهم بشمســـك مـــن شـــهاب

وفي أحيانٍ ثالثة يستحيل الغضب السابق بردًا وسلامًا عبِقًا بأريج الزهر، ودعواتٍ متواصلاتٍ لكربلاء بالريّ والسقيا، فإن لم تَجُد السماء بالغيث فأنهار الدموع المتفجرة من عينيه تكفي لتزيين أرض كربلاء بالرياض والبساتين :

ســـلامٌ كأزهـــار الرُّبـــى يُتَنســـمُ علـــى منـــزلٍ منـــه الهـــدى يُـــتَعلمُ[٤]
علـــى مصـــرعٍ للفـــاطميين غَيّبـــت لأوجههـــم فيـــه بـــدورٌ وأنجـــمُ
علـــى مشـــهدٍ لـــو كنـــت حاضـــرَ أهلـــه لعاينـــتَ أعضـــاء النبـــي تُقَســـمُ
علـــى كـــربَلا لا أخلـــف الغيـــثُ كـــربلا وإلا فـــإن الـــدمعَ آنـــدى وأكـــرمُ
مصـــارع ضـــجت يثـــربٌ لمصـــابها ونـــاح علـــيهن الحطـــيمُ وزمـــزمُ
ومكـــة والأســـتارُ والـــركنُ والصـــفا وموقـــفُ جَمـــعٍ والمَقـــام المعظَـــمُ
وبـــالحجر الملثـــومِ عنـــوانُ حســـرةٍ ألســـت تـــراه وهـــو أســـود أســـحمُ؟
وروضـــة مولانـــا النبـــي محمـــدٍ تبَـــدّى عليهـــا الثّكـــلُ يـــوم تُخُرِّمـــوا[٥]
ومنبـــرُه العُلَـــويُّ والجـــذعُ آعـــولا علـــيهم عـــويلاً بالضـــمائر يُفْهـــمُ

(١) شعر صفوان بن إدريس . ص٣٢.٣٣، من الوافر . والطّفّ : أرض من ضاحية الكوفة في طريق البرّية فيها كان مقتل الحسين بن على رضي الله عنه ، وهي أرض بادية قريبة من الريف فيها عدة عيون ماء جارية (معجم البلدان لياقوت الحموي . المجلد الرابع . دار صادر . بيروت . ١٣٩٧هـ . ١٩٧٧م . ص٣٦).

(٢) الجَناب : الناحية والفِناء وما قرُب من محِلّة القوم (اللسان : جنب).

(٣) تَحْصِب : يقال حَصَبه يَحْصِبه حَصْبًا ، أي رماه بالحَصْباء : وهي الحصى(اللسان: حصب).

(٤) شعر صفوان بن إدريس . ص ١٠٠ . ١٠١ . بحر الطويل .

(٥) تُخُرِّموا : ماتوا وذهبوا ، اخترمت فلانًا المنيةُ أي أخذته (انظر : اللسان . خرم).

ولـــو قـــدَرتْ تلـــك الجمـــاداتُ قـــدْرَهم لـــــدُكّ حـــــراءٌ واســـــتُطيرَ يَلَمْلـــــمُ[١]

ومـــا قـــدْرُ مـــا تبكـــي الـــبلادُ وأهلَهـــا لآل رســـــولِ الله والـــــرُّزْءُ أعظـــــمُ؟

ومن الملحوظ أن الشاعر قد جعل من قضيةِ مقتل الحسين قضيةً كونية، ومن ثم فقد تآزرت كل عناصر الطبيعة وأنشأت مأتمًا كونيًّا لتذرف فيه العبرات على مقتل سبط رسول الله . صلى الله عليه وسلم، لا سيما الأماكن المقدسة عند المسلمين والمرتبطة بالشعائر الدينية، في إشارة إلى أن الحسين كان له من القداسة في قلوب المسلمين ما لهذه المناسك، وهو ربط ماهر وذكيٌّ من الشاعر.

ولعل السبب في تذبذب موقف الشاعر من كربلاء يرجع إلى مخاطبته إياها باعتبارين :

فهي المكان المشئوم الذي وقعت فوق أرضه أبشع الحوادث، ورُويت رماله بأزكي الدماء، وخَذَلَ الحسين والطالبيين وتقاعس عن نصرتهم .

وهي في الوقت ذاته أشرف البقاع التي سقيت بأشرف الدماء، واحتضنت رفات سبط أشرف الخلق وسراة بني هاشم، فهي بهذا الاعتبار جديرة بالسلام العطر وبالتحية والسقيا .

فكلا الموقفين اللذين يبدوان متفاوتين ينهلان من معينٍ واحد' هو حب الحسين وآل بيت رسول الله . صلى الله عليه وسلم .، فهذا الحب هو الذي ملأه حقدًا وحنقًا على قتلة الحسين . رضي الله عنه .، وحب الحسين وآل البيت أيضًا هو الذي جعله يرق ويصبو ويشتاق ويدعو بالسقيا لتراب كربلاء الذي سُقي نجيعَه الطاهر' واحتوى جسده الشريف' هو ومن ناصره من آل البيت' وهذا الموضع هو الذي حظي بشرف وداع الحسين ورهطه من آل البيت الأطهار.

<u>مدح الحسين :</u>

لا تخلو مرثية من المراثي من ذكر لمناقب المرثي ومكرماته وأعماله الجليلة ومكانته بين الناس، على تفاوتٍ بينها في حظوظها من ذلك .

وقد اشتملت حسينيات التجيبي على العديد من المواطن التي يمتدح فيها سيدنا الحسين . رضي الله عنه .، فأحيانًا يشيد بحسبه ونسبه الشريف، فهو سبط النبي صلى الله عليه وسلم، ونجل علي رابع الخلفاء الراشدين رضي الله عنه، فلا تَدِيهِ دماء أسباط بني أمية طرًّا :

أيُّ سِـــــبْطٍ لـــــو قتلـــــتم عنـــــده وقتلـــــتم كلكـــــم مـــــا انتصـــــفا[٢]

جـــــــدّه للأنبيـــــــاء خـــــــاتِمٌ وأبـــــــوه خـــــــاتِمٌ للخلفـــــــا

---

(١) يلملم : ويقال ألملم أيضًا ، وهو موضع على ليلتين من مكة وهو ميقات أهل اليمن وفيه مسجد معاذ بن جبل ، وقيل هو جبلٌ من الطائف ، وقيل اسم وادٍ(انظر : معجم البلدان لياقوت الحمويّ . مج ٥ . ص ٤٤١).

(٢) شعر صفوان بن إدريس . ص٨٥ ، من بحر الرمل .

لـــــيس يحتـــــاج إلـــــى تســـــميةٍ إن ســـكتنا عـــن حســـينٍ عُرفـــا[١]

وفي هذا البيت الأخير تشتم رائحة بيت الفرزدق في مدح زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب' حيث يقول في ميميته المشهورة :

ولـــيس قولُـــك : مـــن هـــذا ؟ بضـــائرِهِ العُرب تعرف من أنكرت والعجمُ[٢]

وهذا التصرف كما يسميه البلاغيون هو إلمامٌ وسلخٌ أي أخذ المعنى دون اللفظ[٣].

وهذا الأمر . ونظائره في مراثيه . يدل على ثقافة أبي بحر (صفوان) الواسعة' وهضمه للتراث الشعري . شأن أغلبية الأدباء الأندلسيين . وسعة حافظته منه، حتى تسنى له التصرف في ألفاظ هذا التراث ومعانيه وقصائده على هذا النحو البارع.

وأحيانًا يمدحه بالشجاعة والزهد في الدنيا وحب لقيا الله ورسوله :

ولـــولا قضـــاءٌ أنجـــزَ الوعْـــدَ فاقتضـــوا وســـامهمُ أن يَجرعـــوا السُّـــمّ فارتضـــوا[٤]

علَـــوا مثلمـــا كـــانوا بـــأوّلهم علَـــوا وعايَنْـــت آســـادَ الكفـــاح إذا ســـطَوا

وقد حَجَرتْ منها ثعالبُ أوْرالِ

لقـــد طـــاحَ فـــي ذاك المجـــال كـــلاَ ولا سَـــرِيّ قَرَتْـــه سَـــوْرةُ الكـــرْبِ كـــربلا

يقـــولُ وقـــد لاقـــى الـــردى مُـــتَهلّلا ســـأدركُ عنـــد الله مجـــدًا مُـــؤَثّلا

وقد يُدرك المجدَ المؤثلَ أمثالى

ولكنّـــه مـــا شـــامَ ســـيفًا ولا انْتضـــى وعـــن زِبـــرِج الـــدنيا الدّنيّـــة أعرضـــا[٥]

وفـــي أن يلاقـــي جـــدّه البَـــرَّ أغمضـــا وقـــد شَـــغَفَتْه لوْعـــةُ سُـــخطُها رضـــا

كما شغف المهنوءةَ الرجلُ الطالي

وأحيانًا يمدحه بالكرم والسخاء، ويشبهه بالبدر الذي أظلمت الدنيا بعد رحيله :

---

(١) هذا قريب من قول الفرزدق :

وليس قولك من هذا بضائره *** العرب تعرف من أنكرت والعجم

(٢) شرح ديوان الفرزدق . ضبط معانيه وشروحه وأكملها / إيليا الحاوي . دار الكتاب اللبناني . مكتبة المدرسة . بيروت . لبنان . ط١ . ١٩٨٣م . ج٢ . ص٣٥٣ .

(٣) انظر : الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني . وضع حواشيه / إبراهيم شمس الدين . دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . ط١ . ٢٠٠٣م . ١٤٢٤هـ . ص٣٠٧.

(٤) شعر صفوان بن إدريس . ص ١٤١ . بحر الطويل .

(٥) السابق . ص ١٣٩ . بحر الطويل .

هُـــمُ خـــدعوه والكـــريمُ مُخـــدّعُ بمُختلَـــقٍ مـــا فيـــه للصـــدق مَطْمـــعُ[١]

لقـد صـكّ وجـهَ البـدر شـجوًا وخمّشـا وأذرفَ دمـــعَ الجـــوِّ حزنًـــا فأجهشـــا[٢]

نهـــارٌ علـــى النهـــرين جـــاش وجيَّشـــا وأظمـــأ أصـــحابَ الكســـاء وعطّشـــا

لِغَيْثٍ من الوَسْميِّ رائدُه خالِ

ويدعو له بالمنازل العلى من الجنة، وبلوغ مراتب الشهداء والصديقين، ويؤكد جدارة قبره بكل عبرةٍ سُفكت حزنًا عليه، وبكل ديمة ممطرة تراوحه أو تغاديه، وكأنه قد صدق فيه قول أبي تمام[٣] :

كـــأن الســـحابَ الغـــرَّ غيّـــبْن تحتهـــا حبيبًـــا فمـــا ترقـــا لهـــن مـــدامعُ

ربًـــى شـــفعت ريـــحُ الصـــبا لرياضـــها إلـــى المـــزن حتـــى جادهـــا وهـــو هـــامعُ

يقول صفوان:

فـدى اللهُ ذاك الـرُّوحَ مـا شـاء واشـتهى وقدســـــه فـــــي الصـــــالحين ونزّهـــــا

وصـابتْ علـى شِـلْوٍ إلـى تُرْبـه انتهـى مـــدامعُ تُنْبـــي أنهـــا تحفـــةُ النهـــى

وجاد عليها كلُّ أسحمَ هطّالِ

وختامًا يعلن أنه قد افتض سر حادث كربلاء العظيم، وهو رغبة الله . عز وجل . في الإنعام على الحسين رضي الله عنه بمرتبة الشهادة إضافةً إلى مرتبة قرابته من رسول الله، حتى ينعم في جنان الخلد بما لا يُبذل إلا للخاصة ممن رضي الله . عز وجل . عنهم:

ألا إنّ ســـرَّ البَغـــي بـــالطفّ أعلِنـــا غـداةَ جنـى حلـوَ الشـهادة مَـنْ جنـى[٤]

وأزْمـــعَ لا يَلْـــوي عِنانًـــا علـــى الـــدُّنا أتيحـــتْ لهـــا بِـــيضٌ مُمَوّهـــةَ السّـــنا

ومسنونةَ زُرْقٌ كأنياب أغوالِ

---

(١)السابق . ص ١٣٩ . بحر الطويل .

(٢)السابق . ص ١٣٩ . بحر الطويل . الخَمْش : الخدش في الوجه ، وقد يستعمل في سائر الجسد(اللسان : خمش).

(٣) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي . تحقيق/ محمد عبده عزام . الطبعة الثالثة . دار المعارف . القاهرة . بدون تاريخ . المجلد الرابع . ص٥٨٠ . ٥٨١ .

(٤) شعر صفوان بن إدريس . ص١٣٨. ١٣٩ . بحر الطويل .

الفصل الثاني
الخصائص الفنية

أولا : الأفكار والمعاني :

لا ريب أن شعر الرثاء من أصدق الأغراض الشعرية عاطفةً ؛ لأنه يصدر من حيٍّ في حق ميت، إلا إذا كان الدافع طمعًا في صلةٍ أو جائزةٍ من أهل المرثيّ، وهذا الدافع معدوم هنا، ناهيك أن المرثي هو سيد شباب أهل الجنة، وسبط المصطفى صلى الله عليه وسلم، ودرة آل البيت، فحبه ورثاؤه وذكر مناقبه ليس وفاءً وبرًّا فحسب، ولكنه دينٌ يؤجر المرء عليه ويثاب.

إذا أضفت لكل هذه الأسباب هذه الفاقة والفقر والضيم الذي كان يعانيه الشاعر، وعجزه عن تجهيز ابنتيه اللتين اقترب موعد زواجهما وشراء شوارهما، وجدت أن إقباله على رثاء الحسين وآل البيت كان إقبالاً صادقًا، وعاطفته تجاههم عاطفة مشبوبة، إنها كذلك عند كل مسلم، فكيف بمن كان في هذه الحال من الفاقة فأراد أن يُغني فؤاده وجوارحه حبًا وشوقًا إليهم، وأسىً وحزنًا عليهم ؟

وإذا كان المعيار الأدق للصدق في العمل الأدبي هو ربطَ النص بصاحبه، دون تعويل على حقيقة القول في ذاته فقط[(١)]، فإن صفوان كان على جانب كبير من العفة والأخلاق الحميدة والالتزام والتسامح ...كما وصفه أهل زمانه[(٢)].

وبمطالعة مراثي صفوان السابقةِ نجد أنها تدور حول مجموعة من الأفكار العامة تضافرت على تكوينها العديد من المعاني الجزئية، وهذ الأفكار على الإجمال هي :

أ . شدة الحزن والأسى على مقتل الحسين رضي الله عنه ومن ثبت معه من آل البيت، ويندرج تحت هذه الفكرة إظهار حب الشاعر لهم، وتأكيده أنهم الفئة الثابتة على الحق، وحث العينين على المواظبة على البكاء، وعِزّة الصبر، بل ورفضه، ولامبالاته بمن يلومه على حزنه ...

ب . هجاء بني أمية وتوعدهم، وإظهار الحقد والحنق عليهم، والتأكيد على أنهم الفئة الباغية وأرباب الباطل.

وتتضمن هذه الفكرة أيضًا الكثير من المعاني الجزئية، مثل :

. مخاطبة يزيد بن معاوية مصرّحًا ببغضه وبغض عمر بن سعد مسعر الحرب وقائد الجيش الذي قتل الحسين وسبى آل البيت .

. إخفار أميةَ ذمةَ الله وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الفعلة الشنعاء.

. توحش قلوبهم وخلوها من الرحمة الواجبة حتى للكافر، ولكنهم ضنوا بها على أخٍ مسلم فمنعوه الماء وهو في النزع الأخير، وأيُّ أخٍ ؟! إنه سبط رسول الله، وعترة آل البيت.

. تبشير أميةَ وأشياعهم بسوء العاقبة في الدنيا والآخرة .

---

(١) انظر : في الأدب الإسلامي قضايا ومفاهيم . أ.د/ أحمد محمد علي حنطور . ط٢ . مطبعة التركي . طنطا . ١٤٢٥هـ . ٢٠٠٥م . ص١٧.

(٢) راجع التمهيد من هذا البحث .

ج . استعراض موقف رسول الله . صلى الله عليه وسلم . والراشدين وعليٍّ وفاطمة ضد من قتلوا الحسين، وغضب الله عز وجل، ورسول الله جد الحسين، وابنته فاطمة أم الحسين، وأبيه علي بن أبي طالب، والصديق، وعمر، وعثمان، وكل الأماكن المقدسة في الإسلام لمقتله .

د . موقف الشاعر من يوم كربلاء، حيث كان نقمةً عليه أحيانًا، وشوقًا وحنينًا ممزوجين بالحزن في أحيانٍ أخرى . كما أسلفت القول . .

هـ . مدح الحسين . رضي الله عنه . بالكرم، والشجاعة، والإقبال على الشهادة، وحب ملاقاة الله ورسوله، وصفاء القلب ...

ومن الملحوظ على مرثيات التجيبي في الحسين عامة أنها توفرت لها وحدة الموضوع' فكل منها تدور حول تعداد مناقب المرثي، وإظهار نسبه الشريف ومكانته، ودحض أباطيل خصومه ... وهذه كلها معانٍ مترابطة متلازمة يستدعي بعضها بعضًا في قصيدة الرثاء، فلم تجاوزه إلى غرض آخر كالغزل أو بكاء الدمن ...

وإذا كانت مراثي التجيبي للحسين رضي الله عنه قد توفرت لها الوحدة الموضوعية' فإنها قد افتقرت حتمًا للوحدة العضوية، فمن اليسير التقديم والتأخير بين أبياتها وأدوارها.

فإذا أخذنا مرثيته الخامسة على سبيل المثال، والتي مطلعها :

سـلامي وإلمـامي وصـوبُ بكـائي على معهَـدٍ للسـادة النَّجَبـاء

تَـوى أهلُـه مـن بعـد طـول ثَـوَاء أناديـه لـو أصـغى لطـول نـداء

ألا عم صباحًا أيها الطللُ البالى

تجده يعقب فكرة السلام على أطلال قتلى آل البيت في كربلاء بإظهار الحزن والجزع، ثم يعود في المقطع التالي لمخاطبة دورهم وأطلالهم فيقول :

ألا هـل تُنـادي دارَهـمْ وتُحَـدّث فأنفُـثُ والمصـدورُ مثلـي يَنفـثُ

وهـل يسـمعنْ قـولي تـراب وكَثْكـثُ ولـو أننـي أبقـى عليـه وأمكـثُ[1]

ثم يعود في المقطع التالي مباشرة للحديث عن حزنه مرة ثانية فيقول :

لـرُزْءِ رسـول الله بـالطّفِّ انْشـجُ ودمعـيَ فـي مرضـاته يتـدحرجُ

كـأن الأسـى درَّ الـدموع يُبهـرجُ وغيـري مَـن يفنـى كمـا هـام حُنـدجُ

وهكذا ...

---

(١) الكَثْكَث والكِثْكِث : بفتح كافيه وكسرهما : دُقاق التراب وفُتات الحجارة ، وقيل التراب مع الحجر ، وقيل التراب عامة ، وقيل الحجارة (اللسان : كثث) .

وقد ذكر د / محمد بن شريفة أن أبا بحر صفوان بن إدريس التجيبي قد نظم المرثيتين اللتين ذيلهما وخمسهما بأعجاز من قصيد امرئ القيس على ترتيب حروف المعجم(١)، وبمطالعة القصيدتين يتبين عدم صحة ذلك، فالمخمسات لا تجري على نسق حروف المعجم، وإن كان أغلبها كذلك، ولعل هذا كان قصد صفوان بالفعل، ولعله قام بتنفيذه، ولكنّ يد الزمان العابثة قد أتت على هذا الترتيب فنقضته .

عمومًا حتى على افتراض هذا ومطالعة القصيدتين من جديد، فإنهما لا تبرآن أيضًا من الافتقار إلى الوحدة العضوية .

بقي نقطة أخيرة، وهي الإشارة إلى أن قصائده التي ذيلها بأعجاز من قصائد لامرئ القيس كان ملحوظًا فيها محاولتُه التوفيق بين معانيه وما ضمّنه قصائدَه من معاني امرئ القيس، وهذه محاولة عسرة شديدة، لأن الانسياق وراء الشعور وصياغة التعبير وفقًا لفورات النفس الفطرية المباشرة أيسر بكثير من وضع نموذج شعري معد مسبقًا ومحاولةِ التوفيق بينه وبين ما يريد الشاعر سواءً على مستوى الشعور أو على مستوى الصياغة والتعبير .

وإذا كان الشاعر قد وفق في هذا الأمر في كثير من الأحيان ببراعة وإتقان، فإنه يبقى عليه التفاوت الأسلوبي بين شعره وبين شعر امرئ القيس الذي كان يتضاءل حينًا ويتعاظم حينًا .

كذلك يؤخذ على الشاعر إخفاقه في بعض الأحايين في التذييل بالتعبير الشعري المناسب من شعر امرئ القيس، مثل قوله :

سـلامي وإلمـامي وصـوبُ بكـائي على معهَـدٍ للسـادة النَّجَبـاء

تَـوى أهلُـه مـن بعـد طـول ثَـوَاء أناديـه لـو أصـغى لطـول نـداء

ألا عم صباحًا أيها الطللُ البالي

وقوله :

أحييـه والـدمعُ المصـون المُحبَّـبُ كأنمُـل أهليـه يَصـوبُ ويَسـكبُ

يُفضِّـض طـورًا وَجنتـي ويُـذَهِّب أقـول لـه وهـو أجـردُ سَبسـبُ

وهل يَعِمن من كان في العُصُر الخالي

(١) نقلاً عن صالح بن شريف الرندي في التذييل بقصيدة (قفا نبك) ، وتنبيهًا واضحًا منه في التذييل بقصيدة (ألا عم صباحًا): انظر: أديب الأندلس . ص ١٣٥ ، ١٤١ . وربما كان يقصد أنها مرتبة حسب منهج أحد المعاجم العربية.

فإن مرثيّه هو سبط صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام، وسلامه الذي يرسله موجّهٌ إليه وإلى آل البيت رضوان الله عليهم أجمعين، أفبعد هذا يحييهم بتحية الجاهلية لمجرد الفتنة بامرئ القيس ؟

وأحيانًا نجد افتعالاً وتكلفًا في التوفيق بين التعبيرين، مثل قوله :

أقـــول لحـــزنٍ فـــي الحســـينِ تأكّـــدا تملـــكْ فـــؤادي مُتهمًـــا فيـــه مُنجـــدا

ولـــو غيـــرُ هـــذا الحُـــزن راح أو اغتـــدى لناديتُـــــه قبـــل الوصـــول مُـــردّدا

عقرتَ بعيري يا امرأ القيس فانزلِ

ثانيًا : الألفاظ والأساليب

أ . الألفاظ : عندما نطالع في تراثنا الشعري الأندلسي بشكل عام أو في ديوان واحد من شعراء الأندلس بشكل خاص لا تخطئ أعينُنا هذه الرقة والسلاسة التي تجري في شراييِنه وأوصاله، ومن المعروف أيضًا أن هذه الرقة والسلاسة هي أثر من آثار البيئة الأندلسية وطبيعتها الخلابة الشاعرة التي طبعت نفوس أهل ذلك الصقع جميعًا، سواءً في طباعهم وأخلاقهم' أو في نثرهم وشعرهم، وإذا كان شارد الشعر لم يُستدعَ بمثل الماء الجاري والمكان الخضر الخالي والرياض المُعشبة ومجالس الشراب والطرب كما ذكر ابن قتيبة نقلاً عن بعض الشعراء(١)' فإن بيئة من البيئات الإسلامية لم يكتب لها مثلُ حظ الأندلس من ذلك .

في هذه البيئة الطبيعية الشاعرة نشأ صفوان وعاش، فتجد ألفاظه الشعرية تمتاز بالسهولة' والسلاسة' وقرب المأخذ، والوضوح، وهذه القصائد التي بكى بها الحسين . رضي الله عنه . ومن قتل من آل البيت في كربلاء دليل على ذلك، ومن ثم فلا حاجة لذكر شاهد بعينه من هذه المراثي السابقة هنا للتدليل على ذلك، فهي تكاد تكون كلها شاهدًا .

ولكن هذا لا يمنع أنه قد وُجدت بجانب تلك الألفاظ السهلة ألفاظٌ تحمل لونًا من القوة والجزالة' وقد تقتضي شيئًا من البحث والتنقيب عن حقيقة معناها والمقصود بها' وأغلب هذا النوع من الألفاظ يرتبط ظهوره بالمواطن التي يشتد فيها غضب الشاعر' أو التي تتحدث عن أحداث معركة كربلاء، وأدوات السلاح، ... ومن ذلك قوله :

تشكى بالغليل فأوردوه ... ولكن كل مطرود الذباب

ألم تلحقهم فتذود عنهم ... وتَحصِب من رماهم بالهضاب

علام تركت نور الله يطفا ... غداتك بالمهندة العضاب

تقول أبي همْ غادروا ابنيَّ نهبة ... لما صاغه قينٌ وما مجّ أرقمُ

فخُذْ منهمُ ثاري وسكِّنْ جوانحًا ... وأجفانَ عينٍ تستطير وتسجُم

وروضةَ مولانا النبي محمدٍ ... تبَدّى عليها الثّكلُ يوم تُخُرِّموا

إذن صدق الصّدّيقُ حملة مُقْدِمٍ ... وما فارق الفاروقَ ماضٍ ولَهْذَمُ

وعاث بهم عثمانُ عَيْثَ ابن حُرّةٍ ... وأعلى عليٌّ كعبَ من كان يُهْضَمُ

---

(١) انظر : الشعر والشعراء لابن قتيبة . تحقيق وشرح الشيخ/ أحمد محمد شاكر . دار المعارف . القاهرة . بدون تاريخ . ج١ . ص٧٩ ، ٨٠ .

وجَــبَّ لهــم جبريــلُ أتْمــكَ غــاربٍ مـــن الغـــيِّ لا يُعْلـــى ولا يُتَســـنّم
إلـــى الله مـــن عبـــدٍ بســـيده بغـــى فغـــادره تحـــت العَجـــاج مُمَرّغـــا
رَوِيــتُمْ وَضَــجَّ الســبطُ فــيكم تعطّشــا فســـقّيتموه ظـــالمين دمَ الحشـــا
ألا رُبّ حقـــدٍ مـــن صـــدوركمُ فشـــا فأغَرَبْتُـــهُ بصـــارم العضْـــبِ أرقشـــا
رضـــيتَ عـــدوَّ الله واللهُ ســـاخطٌ بمـــا فعلـــت فـــي كـــربلاء المـــآقطْ
ألا بـــأبي تلـــك الـــدماءُ الغـــوابطْ وأنصـــارُها الأعلـــون عنهـــا شـــواحطْ
فلمـــا اســـتطارت بيـــنهم شُـــعَلُ الـــوغى رغـــا فـــوقهم سَـــقْبُ الســـماء بـــلا رُغـــا
وضـــاحكتُ شـــوقًا والضـــراغمُ تعـــبِسُ وســـمرُ القنـــا بـــين الترائـــبِ كُـــنّسُ

كما نجد في ألفاظه كثيرًا من الألفاظ المرتبطة بمناسك الدين الإسلامي والأماكن التي تؤدى فيها' وبصاحب الرسالة . صلى الله عليه وسلم . وصحابته الغر الميامين، ولا غرو' فإن المرثي هو سبط المصطفى وبضعة منه وآلُ بيته الأطهار' فالحديث عنهم لا ينفك عن الحديث عنه، وذكرهم ملازم لذكره صلى الله عليه وسلم .

مصـــارع ضـــجت يثـــربٌ لمصـــابها ونـــاح علـــيهن الحطـــيمُ وزمـــزمُ
ومكـــة والأســـتارُ والـــركنُ والصـــفا وموقـــفُ جَمـــعٍ والمَقـــام المعظّـــمُ
وبـــالحجر الملثـــومِ عنـــوانُ حســـرةٍ ألســـت تـــراه وهـــو أســـود أســـحمُ؟
وروضـــةَ مولانـــا النبـــي محمـــدٍ تبَـــدّى عليهـــا الثّكـــلُ يـــوم تُخُرّمـــوا
ومنبـــرُه العُلْـــويُّ والجـــذعُ أعـــولا علـــيهم عـــويلاً بالضـــمائر يُفْهـــمُ
ولـــو قـــدَرتْ تلـــك الجمـــاداتُ قـــدْرَهم لـــدُكّ حـــراءٌ واســـتُطيرَ يَلَمْلـــمُ
ديـــارُ الهُـــدى بـــالخَيف والجمـــرات إلـــى مُلتقـــى جَمـــعٍ إلـــى عرفـــات

كذلك نجد أسماءً لبعض الأعلام الذين شاركوا في أحداث مقتل الحسين رضي الله عنه مثل :

أبـا خالـدٍ والقـدحُ فـي الـدينِ غـائظٌ أفـي الحـق أن تَحنـو عليـكَ الحـوافظْ
فقل لابن سعدٍ والعصا عبدُ مَن عصى حَلَفـت إليـه وَيْـك أشـأم أبْرصـا

وقد دعا إليها مخاطبته إياهم' إما لومًا' أو تبكيتًا' أو توعدًا بعذاب أليم .

كذلك كان هناك ألفاظ نادرة لها بناء غريب أو غير مستعمل، مثل لفظة (مُقَيِّتِي) بمعنى أنه لا يملك إلا الكفاف من القوت، والأشهر والأكثر استعمالها بالواو :

وعهـــدي بـــه والـــدهرُ جَـــدٌّ مُقَيّتـــي صـــبورٌ علـــى الأرزاء جـــمُّ التثبُّـــت[1]

ولا يُعوزنا في مطاوي معجمه الشعري العثور على الكثير من الألفاظ المصورة' التي يعد كل لفظ منها بمفرده صورة، وهذا مما يحسب للشاعر ويؤكد شاعريته وأصالة موهبته' هذه الألفاظ مثل: **(ريان . مفعم . تبكي . استطير . أعْوَل . ضاحكت . أعبس . أحرس ...)** .

ولا ريب أن هذه الخصائص الفنية السابقة مقصورة على ألفاظ صفوان التي هي من إنشائه فحسب' دون تلك الأشطار التي كان يذيل بها أبياته من أشعار امرئ القيس وغيره.

ب . الأساليب : الأسلوب هو البصمة الشخصية لكل شاعر على حدة' هو ذلك الطابع شديد الخصوصية الذي لا يتكرر، هو ذلك الروح الساري في القصيدة الشعرية الذي يستطيع من خلاله القارئ الحاذق المزود بالثقافة الأدبية والشعرية الواسعة أن ينسب النص إلى صاحبه وإن لم يحفظه، فإن أخطأ في نسبته إليه لم يخطئ في نسبته إلى عصره أو بيئته على الأقل .

وأسلوب صفوان في حسينياته يتسم في الغالب بالسهولة، والوضوح، والقرب' والبعد عن الغموض والتكلف، وأكثر قصائده أمثلة لهذا النوع من الأسلوب.

غير أن هذا الأسلوب قد يطفِر أحيانًا فيظفر بحظوظ متفاوتة من القوة والإحكام' وهذا نجده مرتبطًا أيضًا بمشاعر الغضب عند الشاعر، ومشاهد القتال، والحديث عن أدوات الحرب ...

من ذلك على سبيل المثال :

ألـــم تلحقهـــم فتـــذود عـــنهم وتَحصِـــب مـــن رمـــاهم بالهضـــاب

عـــلام تركـــت نـــور الله يطفـــا غـــداتك بالمهنـــدة العضـــاب

ويـــا نجـــل الـــدعيّ دعـــيّ حـــرب لقـــد لَفقـــت نســـلاً مـــن كـــذاب

إذَا لسَـــقَيت عنـــه الســـيف ريًّـــا ولـــيس ســـوى نجيعـــي مـــن شـــراب

مصـــارع ضـــجت يثـــربٌ لمصـــابها ونـــاح علـــيهن الحطـــيمُ وزمـــزمُ

تقـــول أبـــي هـــمْ غـــادروا ابنـــيَّ نهبـــة لمـــا صـــاغه قـــينٌ ومـــا مـــجّ أرقـــمُ

فخُـــذْ مـــنهمُ ثـــاري وســـكِّنْ جوانحًـــا وأجفـــانَ عـــينٍ تســـتطير وتســـجُم

---

(١) مُقَيِّتي : القوت والقِيت والقِيتة : ما يُمسك الرَّمَق من الرزق ، يعني أن الدهر لا يعطيه من الرزق إلا الكفاف وبُلْغة العيش(انظر : اللسان : قوت) .

إذن صـــدق الصّـــدّيقُ حملـــة مُقْـــدِمٍ ومـــا فـــارق الفـــاروقَ مـــاضٍ ولَهْـــذَمُ
ألا طـــربٌ يُقْلـــى ألا حـــزنُ يُصْـــطفى ألا أدمـــعٌ تُجْـــرى ألا قلـــبُ يضـــرمُ
عَـــذِيرِيَ مِـــن رُزْءٍ بصـــبريَ يَعْبِـــث ومـــن نبـــأٍ فـــي عقـــدة الثّكـــل يُنفـــثُ
أيـــا حســـرتا يـــومَ انتـــأوا وتَحمّلـــوا إلـــى كـــربلا مثـــوى الكـــروب تنقّلـــوا
لِيُسْـــبَوا علـــى حكـــم الضـــلال ويُقتلـــوا فيـــا رُزْأهـــم صـــمّم ومثلُـــك يَفعـــل
أيـــا فاســـقًا قـــاد الغـــرورُ شـــكائمَه فـــأورد فـــي نحـــر الحســـين صـــوارمه
تهيـــأ ليـــوم الحشـــر تجـــرعْ علاقمـــه فمالـــك منجـــىً مـــن خصـــومة فاطمـــهْ
ألا إنـــه يـــومٌ علـــى الطّـــفِّ آزفُ بـــه نُكّـــرتْ لابـــن البتـــولِ معـــارفُ
وســـاعده قلـــبٌ هنالـــك واجـــفُ ينـــادي ظـــلامَ الليـــل والنحـــرُ راعـــفُ

وقد تنوعت أساليبه بين الخبر والإنشاء، وكان أكثر الأساليب الإنشائية شيوعًا أسلوب الاستفهام، ثم النداء، ثم الدعاء .

فأما الاستفهام فإنه لم يكن يعني دائمًا السؤال المباشر، ولكن السياق يدل على أنه قد يحمل معاني أكثر عمقًا وارتباطًا بالحالة النفسية للشاعر، ومن ثم فقد كان أكثره من النوع الإنكاري، وشيوع هذا النوع من الاستفهام يعكس رفض صفوان التام لموقف بني أمية وولاتهم الذين قتلوا الحسين رضي الله عنه، بل وإنكار ذلك إنكارًا شديدًا لا يستطيع أن يُنحيه جانبًا عند مخاطبته إياهم أو حتى أن يكفكف من سَوْرته وحدّته' من ذلك قوله :

وســـقتم أهلـــه ســـوق الســـبايا أهـــذا مـــا قـــرأتم فـــي الكتـــاب؟
أتُـــرى أرضـــيتمُ خـــالقَكم يـــوم أذرفـــتم دمـــوع المصـــطفى؟
أمـــا لعهـــود الهاشـــميين حـــافظٌ؟ فبـــالطّفِّ يـــومٌ للرســـالة غـــائظُ
نجيـــعُ حفيـــد المصـــطفى كيـــف يُســـفك؟ وَرِقٌّ بنيـــه بعـــده كيـــف يُملـــك؟
أتَرجـــون إصـــباحًا وقـــد غابـــت الشـــمسُ وزلّ بكـــم عـــن ديـــنكم ذلـــك الـــرجسُ

وأحيانًا يكون الإنكار على أنصار الحسين أنفسهم، إذ يبلغ به الذهول حدًّا يتهم فيه أشياع الحسين بالتقصير في حمايته والذود عنه حتى ظفر به جنود أمية فقتلوه :

أمـــا كـــان فـــيكم مُنكِـــرٌ يـــوم ذلكـــا يقـــولُ وقـــد خـــاض الســـيوفَ الفواتكـــا

بل ربما دفعه الوله إلى أكثر من ذلك، فتراه ينكر على أرض كربلاء وسمائها وجبالها تقاعسها عن نصرة الحسين، فلم تمطر جند أمية نارًا أو ترجمهم أحجارًا' يقول :

ألـــم تلحقهـــم فتـــذود عـــنهم وتَحصِـــب مـــن رمـــاهم بالهضـــاب

عـــلام تركـــت نـــور الله يطفـــا غـــداتك بالمهنـــدة العضـــاب

ألـــم تقـــدر ثكلـــت علـــى انتصـــارٍ فتقـــذفهم بشمســـك مـــن شـــهاب

ومن أساليب الاستفهام أيضًا قوله :

إذا جـــادت دمـــوعي فـــي انتحـــاب فمـــا دعـــوى الغمـــام فـــي الانســـكاب؟

فإنه قد أحسن وأجاد إذ صدّر جملته الشرطية بـ(إذا) ؛ لأن الأصل فيها أن يكون مدخولها من الشرط مقطوعًا بوقوعه كما يقول البلاغيون، وهذا يعكس كثرة انتحابه على مصير الحسين وآل البيت في كربلاء ودوامه' ومن ثم فقد استدعى هذا أسلوبَ الاستفهام الإنكاري أو التحقيري، المبني على المبالغة، فأي حاجة للغمام وأي جدوى للمطر إذا كان ما تذرفه عيناه حزنًا على الحسين أشدَّ وأعظم من حفش السماء؟

وقد يوظف أسلوب الاستفهام تعبيرًا عن استبعاد الحدوث:

وأيـــن لـــي العـــزاء وقـــد تـــردى فَـــراش الصـــبر فـــي نـــار المصـــاب

فإنه يحمل معنى الاستبعاد، فإن الشاعر يستبعد أن يقدر على الصبر' بل إنه لا يريد ذلك من الأساس . كما ذكر في أكثر من موضع . بعد أن هلك سبط النبي . صلى الله عليه وسلم . ومعه هذه العصابة الشريفة من آل بيته الأكرمين.

وبعض الأبيات يتقاسمها أسلوبا النداء والاستفهام الإنكاري مثل:

يـــا بنـــي حـــربٍ جفـــوتم جـــدَّه أرســـولُ الله يُجـــزى بالجفـــا؟

أو النداء والاستفهام التهديدي أو التسخيري . أي الذي يحمل الغير على السخرية . الذي يعكس تسلحه بالكثير من الحجج المؤيدة لكلامه والداحضة لأباطيل أمية حتى جعلهم مثار سخرية .

يـــا بنـــى حـــربٍ ولا عـــذر لكـــم أأطيـــلُ القـــولَ فـــيكم أم كفـــى ؟

أما النداء فبعضه توعّدٌ وتهديد، ويرتبطان في الأغلب بخطاب بني أمية' وأحيانًا يظهر هذا التوعد والتهديد والتقريع عند مخاطبة عينيه حثًّا لهما على البكاء، أو عند مخاطبة أرض كربلاء وشمسه وجباله تقريعًا لها على خذلان الحسين' مثل :

أيـــا أمـــة الطغيـــان مـــالكمُ حـــسٌّ عـــلامَ بنـــاءُ الـــدِّينِ إن هُـــدم الأسُّ

ويـــا عينـــي إن لـــم تســـتهلا ثكلتكمـــا إذَا بـــين السِّـــخاب

يزيـــد فكـــم يزيـــد عليـــك حقـــدي رُزئـــتَ الفـــوز مـــن حســـن المـــآب

أيـــوم الطـــف لا بوركـــت يومـــا جعلـــت الأســـد نهبـــا للكـــلاب

ألا يـــا يـــوم عاشـــوراء راجـــع جـــوابي لا قـــدرت علـــى الجـــواب

ويـــا نجـــل الـــدعيّ دعـــيّ حـــرب لقـــد لُففـــت نســـلاً مـــن كـــذاب

أيـــا أمـــة الطغيـــان مـــالكمُ حـــسٌّ عـــلامَ بنـــاءُ الـــدِّينِ إن هُـــدم الأسُّ

فيـــا أيُّهـــا المغـــرورُ والله غاضـــبٌ لبنـــت رســـول الله أيـــن تُـــيَمِّمُ؟

وهذا البيت الأخير يتضمن أيضًا هذا الاستفهام الذي يحمل معنى التنبيه على ضلال بني أمية، فأين يذهبون من حساب الله ؟!!

وبعض النداء توسل وخضوع وإشفاق وحدب ومحبة، وذلك إذا كان المنادى هو رسولَ الله . صلى الله عليه وسلم . أو الحسينَ أو بعضَ آل البيت رضوان الله عليهم' مثل :

أمـــولاي الحســـين نـــداء عبـــدٍ عظـــيم الحـــزن فيـــك والانتحـــابِ

ألا يـــا رســـول الله صـــدري توهجـــا لمصـــرع ســـبطٍ بالـــدماء تضـــرَّجا

وأما الدعاء فكان أحيانًا بالتقديس لآل البيت، وأن يُكتب لهم الرضا والرضوان والمنازل العلى التي وعدوا من الجنة، مثل :

فـدى اللهُ ذاك الـرُّوحَ مـا شـاء واشـتهى وقدســـه فـــي الصـــالحين ونزّهـــا

وصـابتْ علـى شِـلْوٍ إلـى تُرْبـه انتهـى مـــدامعُ تُنْبـــي أنهـــا تحفـــةَ النهـــى

وأحيانًا رجاءً لنفسه بالفوز بشفاعة رسول الله . صلى الله عليه وسلم . مثل :

منحتـــك مـــن بنـــات الفكـــر بكـــرًا أطـــار شـــرارَها زنـــدُ اكتئـــابي

عســـى الـــرحمن يقبلهـــا فتضـــحي شـــفاعة أحمـــد عنهـــا ثـــوابي

بل نجد مشاعر الغضب المتأججة في صدره إلى حد جعله يتهم كربلاء ويومها وأرضها وجبالها بالمشاركة في قتل الحسين بسبب تقاعسها عن نصرته، نجد هذه المشاعر تستحيل بردًا وسلامًا في بعض الأحيان على كربلاء وأرضها، ودعاءً لها بالري والغيث، وكأنه كان فاقدًا للرشد ثم استرده، وعلم أن هذه الأرض وهذه السماء خاضعة لإرادة الخالق العظيم، وأن ساحتها من الذنب بريئة :

علـى كـربَلا لا أخلـف الغيـثُ كـربلا وإلا فـــإن الـــدمعَ أنـــدى وأكـــرمُ

ومنها أسلوب الأمر، الذي يعكس معاني التحسر والوله والتمزق والعويل

انـــدُب الطـــفَّ وسِـــبط المصـــطفى بمـــراثٍ هـــي أســـرى مِـــن قِفـــا

ولمعنى مشابه استخدم أسلوب النهي التالي له :

لا تـــرُم ضـــوءَ هُـــدىً مـــن بعـــده فســـراجُ الهـــدْي بـــالطف انْطفـــا

وأسلوب التعجب، الذي يستخدمه عندما يشتد به الإنكار وعدم التصديق والعجزُ عن استيعاب مقتل الحسين وآل البيت لفظاعته.

أمـــة الطغيـــان مـــا أجـــرأكم! مـــا أقـــلّ البـــرَّ فـــيكم والوفـــا!

. توظيف الموروث : ارتباط الشاعر بالموروث صفقة كل أطرافها رابحٌ فشعره يكتسب أصالة وعراقة، والموروث يتنفس الصعداء وتعود إليه الحياة من جديد، كما أن هذه الظاهرة تربط بين الحاضر والماضي بعرىً وثيقة تعكس تطور التفكير لدى أبناء الأمة الواحدة، كما أنها نوع من تجذر الحاضر في الماضي، وامتداد للماضي في الحاضر .

وقد كان للأندلسيين ولعٌ خاصٌّ بتقليد المشارقة وتوظيف تراثهم، يصرح بذلك ابن بسام، حيث يقول : " إلا أن أهل هذا الأفق أبوا إلا متابعة أهل الشرق، يرجعون إلي أخبارهم المعتادة، رجوع الحديث إلي قتادة، حتي لو نعق بتلك الآفاق غراب، أو طنَّ بأقصي الشام والعراق ذباب، لجثوا علي هذا صنما، وتلوا ذلك كتابا محكما' وأخبارهم الباهرة، وأشعارهم السائرة، مرمي القصية، ومناخ الرذية، لا يعمر بها جنان ولا خلد، ولا يصرف فيها لسان ولا يد "[(١)] .

ولعل هذا هو السر والباعث الذي حمل صفوان على تذييل بعض قصائده بأشطار من شعر الجاهليين كامرئ القيس، وبجانب ذلك كان هناك توظيف لبعض الأمثال كما في قوله:

ولـــو لاقـــاك يومئـــذٍ أبـــوه عـــداك عـــن الغنيمـــة والإيـــاب[(٢)]

وكان هناك الاقتباس من القرآن الكريم، كما في قوله :

وســـلط ذا الفقـــار عليـــك حتـــى تـــوارى شـــمس ظلـــك بالحجـــاب[(٣)]

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنتريني . تح / د إحسان عباس . دار الثافة . بيروت . لبنان . ١٤١٧هـ . ١٩٩٧م . ق١ م١ ص ١٢ .

(٢) مأخوذ من المثل المشهور(رضيت من الغنيمة بالإياب) ، يضرب مثلاً للرجل يشقى في طب الحاجة حتى يرضى بالخلوص سالمًا(جمهرة الأمثال لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري . ج١ . ص٣٩٤).

(٣) اقتباس من قول الله . تعالى . " فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب" سورة ص ، آية ٣٢ .

ومن الحديث الشريف، كقوله :

وأيـــن لـــي العـــزاء وقـــد تـــردى فَـــراش الصـــبر فـــي نـــار المصـــاب

فهو اقتباس من قول النبي . صلى الله عليه وسلم . " مثَلي ومثَلُكم كمثَل رجلٍ أوقد نارًا، فجَعَل الجنادبُ والفَراشُ يَقَعْن فيها، ... "[1]الحديث.

كما وجدت الإشارات إلى بعض القصائد الجاهلية المشهورة :

انـــدُب الطـــفَّ وسِـــبط المصـــطفى بمـــراثٍ هـــي أســـرى مِـــن "قِفـــا"

أو إلى قصص بعض الشعراء المشهورين كامرئ القيس الذي اشتهر بالخلاعة والمجون، وذلك نلحظه في قوله :

كـــأن الأســـى درَّ الـــدموع يُبهـــرجُ وغيـــري مَـــن يفنـــى كمـــا هـــام حُنـــدجُ

بوادي الخزامى أو على رسّ أوعال

وأحيانًا نجد توظيفه للموروث اجترارًا لمعاني شعرية خالدة، كساها صفوان ثوبًا جديدًا، مثل قوله :

لـــيس يحتـــاج إلـــى تســـميةٍ إن ســـكتنا عـــن حســـينٍ عُرفـــا

تشتم في هذا البيت رائحة بيت الفرزدق في مدح زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، حيث يقول في ميميته المشهورة :

ولـــيس قولُـــك : مـــن هـــذا ؟ بضـــائرِهِ العُرب تعرف من أنكرت والعجمُ[2]

فهذا التصرف كما يسميه البلاغيون هو إلمامٌ وسلخٌ أي أخذ المعنى دون اللفظ[3].

أما المحسنات البديعية بنوعيها اللفظي والمعنوي، فقد لعبت دورًا في توضيح المعنى وتقويته، وتزيين النسيج اللفظي أيضًا، لا سيما الطباق الذي لا شك أن الشاعر قصد إليه قصدًا في كثير من الأحيان، إدراكًا منه لأثره الواضح في تقوية المعني من خلال مقابلته بضده، فبضدها تتميز الأشياء :

وهـــم قطعـــوا رأسَ الحســـين بكـــربَلا كـــأنهمُ قـــد أحســـنوا حـــين أجرمـــوا

فخُـــذ مـــنهمُ ثـــاري وســـكِّنْ جوانحًـــا وأجفـــانَ عـــينٍ تســـتطير وتســـجُم

---

(١) صحيح مسلم . دار طيبة . الرياض .١٤٢٧هـ . ٢٠٠٦م . ط١. كتاب الفضائل . ص١٠٨٤ . رقم ٢٢٨٥ .

(٢) شرح ديوان الفرزدق . ضبط معانيه وشروحه وأكملها / إيليا الحاوي . دار الكتاب اللبناني . مكتبة المدرسة . بيروت . لبنان . ط١ . ١٩٨٣م . ج٢ . ص٣٥٣ .

(٣) انظر : الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني . إبراهيم شمس الدين . ص٣٠٧.

عـــــلام تركـــــت نـــــور الله يطفـــــا غـــــداتك بالمهنـــــدة العضـــــاب
لا تـــرُم ضـــوءَ هُـــدىً مـــن بعـــده فســـراجُ الهـــدْي بـــالطف انْطفـــا
أبـــي وانتصـــر للسِّـــبط واذكـــر مُصـــابه وغَلّتَـــه والنهـــرُ ريّـــانُ مُفعـــمُ
ولكنهـــا أقـــدارُ ربـــي بهـــا قضـــى فـــلا يتخطـــى الـــنقضُ مـــا هـــو يُبْـــرِمُ
قفـــوا ســـاعدونا بالـــدموع فإنهـــا لَتَصـــغرُ فـــي حـــق الحســـين ويَعْظُـــمِ
وهُـــدّا مـــن الصـــبر الجميـــل بنـــائي قفـــا ســـاعداني لاتَ حـــينَ عزائـــي
فعطلـــت جيـــدَ اليـــأس مـــن حليـــة الرجـــا فتعسًـــا لأقـــوامٍ يريـــدون لـــي نجـــا
علـــى مثـــل مـــا أمســـي مـــن الهـــم أصـــبحُ زنـــاد فـــؤادي بـــاللواعج يَقـــدحُ

والأسلوب الحكيم أو القول بالموجب[1]كما يقول البلاغيون :

تشـــكى بالغليـــل فـــأوردوه ولكـــن كـــل مطـــرود الـــذباب

وروعة هذا الأسلوب تكمن في أن صدره يظهر أن الحسين عندما طلب الوِرد بعد أن اشتد به العطش في المعركة مع بني أمية أوْرَدُوه، فإذا استكملت قراءة البيت ألفيت أنهم أوردوه حقًّا ولكن لم يكن على الماء، وإنما أوردوه مُخترط السيوف' وأسنة الرماح' وحياض الموت' وهذه براعة عظيمة من الشاعر ؛ لأن هذا الأسلوب يعمق من تصوير فظاعة الجرم الذي ارتكبته أمية في حق الحسين الذي كان من الطبعي أن يلبوا طلبه وأن يوردوه الماء، فهذا شأن المسلمين في معاركهم حتى بمن ظفروا بهم من الكافرين، أما أن يسلكوا غير هذا السبيل وقد توقعْتَه فهذه صدمة تعمق من بغض المتلقي لتصرفهم وإدانته له .

ومراعاة النظير مثل قوله :

مصـــارع ضـــجت يثـــربٌ لمصـــابها ونـــاح علـــيهن الحطـــيمُ وزمـــزمُ
ومكـــة والأســـتارُ والـــركنُ والصـــفا وموقـــفُ جَمـــعٍ والمَقـــام المعظّـــمُ

حيث جمع بين أمور كلها متناسبة ومتعالقة ومترابطة بروابط دينية وثيقة .

ودفعه الاهتمام بإضفاء الزينة على الجانب اللفظي إلى استخدام المحسنات اللفظية' فوجدنا الجناس (تامًّا) مثل قوله :

(١) هو حملُ لفظٍ وقع في كلام الغير على خلاف مراده مما يحتمله بذكر متعلقه (انظر : الإيضاح للخطيب القزويني . ص٢٨٧) .

يزيـــد فكـــم يزيـــد عليـــك حقـــدي رُزئـــتَ الفـــوز مـــن حســـن المـــآب

ولاحقًا، مثل :

عهـــودُ مُصـــابي أمنـــتْ يـــدَ فاســـخ ومُحكمـــه لا يتقـــي حكـــمَ ناســـخِ

ومثل (غائظ، وفائظ) في قوله :

أمـــا لعهـــود الهاشـــميين حـــافظٌ؟ فبـــالطّفِّ يـــومٌ للرســـالة غـــائظُ

علـــى ثُكلـــه قلـــب الكـــريم مُحـــافظٌ فيـــا مهجتـــي إنـــي علـــى السّـــبطِ فـــائظُ

وكذلك بين (حافظ، ومحافظ) جناس ناقص ...

وأحيانًا يوظف المذهب الكلامي[1] فيسوق على كلامه الحجج والبراهين المنطقية على طريقة المتكلمين، مثل :

أيـــا أمـــة الطغيـــان مـــالكمُ حـــسٌّ عـــلامَ بنـــاءُ الـــدِّينِ إن هُـــدم الأَسُّ؟

وهكذا حرص الشاعر على التنويع في أساليبه وتوظيف المحسنات البديعية في خدمه معانيه وأفكاره وألفاظه يحدوه في ذلك إحساس حيٌّ ومشاعر صادقة.

ثالثًا : الخيال والتصوير

الخيال واحد من أهم الأساليب التي يتميز بها الشعر عن النثر، ومن أهم الأدوات التي يمتلكها الشاعر، ويستطيع من خلالها أن يجسد مشاعره وأحاسيسه في هيئة صور فنية محسوسة محملة بالإيحاءات والأبعاد النفسية لعالمه الداخلي، وكلما زاد حظ هذه الصور من الدقة والصحة والإيحاء بالعالم الداخلي للشاعر زادت بالقدر ذاته قدرتها على إثارة المتلقي واستمالة مشاعره ومشاركته الوجدانية ليحلق مع الشاعر في آفاق هذه الصور، ويشعر بما يشعر، ويدور حيث يدور .

ولا ريب أن هذه الصور تتميز عن غيرها من الأساليب والأدوات الشعرية بهذه الشحنة الإيحائية الدافقة، وهذه الإشعاعات اللامحدودة بما يند عن التحديد من أحاسيس الشاعر ومشاعره .

وإذا طالعنا مراثي صفوان في الحسين وجدنا أن الخيال كان له دور مهم في تصوير مشاعره وأحاسيسه المختلفة، وأن أكثر صوره شيوعًا في مراثيه تلك هي الصورة الاستعارية، التي بلغت من الكثرة حدًّا يجعلها ملمحًا أساسيًّا من الملامح الفنية فيها، كما نلحظ أيضًا اعتماده في تشكيل بعض صوره على التشبيه، والكناية أيضًا.

---

(١) هو أن يورد المتكلم حجةً لما يدّعيه على طريق أهل الكلام : الإيضاح . ص٢٧٦.

فمن أمثلة الصور الاستعارية قوله :

وحـــق لـــي البكـــاء فـــإن حزنـــي يثيـــر الـــدمع فـــي جفـــن الســـراب

حيث صور السراب . الذي يتراءى للناظرين كذبًا أنه ماءٌ . بإنسان ورشح الصورة وقواها بأن جعل لهذا السراب جفنًا يستطيع به أن يبكي، وعلى الرغم من أن السراب لا يحتوي على ماء قط لأنه تهويم خادع فإنه لو علم بمصاب الشاعر لتفجر بينابيع من الدمع حزنًا على مصابه.

ومن الملحوظ أن هذه الصورة أقوى تأثيرًا، وأشد إيحاءً، وأبلغ دلالةً على شدة الحزن من قوله : فإن حزني يثير الدمع في عيون الناس، أو حتى في عيون البحر' أو في عيون الأرض، ولكنه انتقى أكثر الأشياء التي يستحيل ويستبعد فيها وجود أي ماء' لتتحول تجاوبًا مع حزنه إلى ينبوع متدفق بالدموع، فأحسن وأجاد .

وقوله يخاطب يوم الطّفِّ مخاطبة إنسان عاقل حاثًّا له على قتال أمية والذود عن الحسين :

أيـــوم الطـــف لا بوركـــت يومـــا جعلـــت الأســـد نهبـــا للكـــلاب

ألـــم تلحقهـــم فتـــذود عـــنهم وتَحصِـــب مـــن رمـــاهم بالهضـــاب

وفعل الشيء ذاته مع يوم عاشوراء، حيث قال :

ألا يـــا يـــوم عاشـــوراء راجـــع جـــوابي لا قـــدرت علـــى الجـــواب

عـــلام تركـــت نـــور الله يطفـــا غـــداتك بالمهنـــدة العضـــاب

بنـــو المختـــار مـــاتوا فيـــك ذبحًـــا لقـــد ضـــحيت بـــالعلق اللبـــاب

ألـــم تقـــدر ثكلـــت علـــى انتصـــارٍ فتقـــذفهم بشمســـك مـــن شـــهاب

كما صور حزن الأماكن المقدسة التي يرتبط ذكرها في أذهان المسلمين بصاحب الرسالة وآل البيت، عن طريق تشخيص هذه الأماكن وجعلها حية عاقلة تحزن وتنوح، يقول :

مصـــارع ضـــجت يثـــربٌ لمصـــابها ونـــاح علـــيهن الحطـــيمُ وزمـــزمُ

.... إلى آخر الأبيات .

ومن أمثلة الصور التشبيهية قوله :

وأيـــن لـــي العـــزاء وقـــد تـــردى فَـــراش الصـــبر فـــي نـــار المصـــاب

حيث صور الصبر بالفراش، وصور مصابه بالنار، وقد هلك هذا الفراش في تلك النار. ولا شك أن الصورة التشبيهية قد أسهمت في تعميق الإحساس بالجزع ونفاد الصبر من خلال تصويره بفراش سقط في النار فاحترق' فهذا أشد إيحاءً بالجزع والهلع من قوله : انتهى صبري، أو نفد .

وقوله مصورًا وجوه قتلى آل البيت بالبدور والنجوم المتلألئة :

علـــى مصـــرعٍ للفـــاطميين غُيّبـــت لأوجههـــم فيـــه بـــدورٌ وأنجـــمُ

ومن الصور التشبيهية ما أخذه من امرئ القيس أخذًا، ومن ذلك تصويره نفسه عندما تسمع أذنه اسم الحسين أو كربلاء بناقف الحنظل :

وأيّ مُصـــابٍ عهـــدُه لـــيس يُنكـــثُ كـــأني إذا مـــا القـــوم عنـــه تحـــدثوا

لدى سمُرات الحى ناقف حنظل

وقوله مصورًا رأس الحسين الوضيء الشريف بالمنارة التي تهدي الضوء للسارين :

لكـــي يُـــدركوا عنـــد ابـــن حـــربٍ تخلّصـــا كـــأن ســـنا رأس الحســـين علـــى العصـــا

منارة مُمسى راهبٍ متبتّل

وقوله مصورًا قلوب أمية بالحجارة والصخور :

وكيـــف تَحـــنُّ اليـــوم أم كيـــف تُشـــفِقُ قلـــوبُ عِـــدىً عـــن موقـــف الحـــقِّ تَزهـــقُ

كجُلمودِ صخر حطه السيل من عل

ومن الصور التشبيهية كذلك قوله :

أحييـــه والـــدمعُ المصـــون المُحبَّـــبُ كأنمُـــل أهليـــه يَصـــوبُ ويَســـكبُ

حيث صور عينيه في جودهما بالدمع الهتون على مقتل آل البيت بأناملهم التي كانت تجود بالعطايا للفقراء والمحتاجين .

ونجده أحيانًا يوظف الصورة الكنائية، مثل قوله :

إلـــى الله مـــن عبـــدٍ بســـيده بغـــى فغـــادره تحـــت العَجـــاج مُمَرّغـــا

وقوله : **به نُكّرتْ لابن البتولِ معارفُ**

حيث كنى عن قتل الحسين رضي الله عنه بتركه ممرغًا مُجندلاً تحت النقع مرة، وبأنه نُكرت معارفه مرةً أخرى .

ولا شك أن الصورة الكنائية تعمق من أثر هذه الفاجعة لأنها التقطت صورة واقعية، ورسمت مشهدًا للحسين بعدما قتل وترك وحيدًا ممرغًا هامد الجثة .

كذلك فمن صوره الكنائية قوله :

وشـــبت لهـــم نـــارُ الـــوغى تتلـــذّذ بمـــارجِ نـــارٍ جمـــرُهُ يَتأخّـــذ

أصاب غضىً جزلاً وكُفَّ بأجذال[1]

---

(١) الأجذال: جمع جِذْل ، وهو أصل الشيء الباقي من شجرةٍ وغيرها بعد ذهاب الفرع (اللسان: جذل).

فقوله : **أصاب غضىً جزلاً وكُفَّ بأجذال**، يفيد جودة هذا الجمر وأنه قد حف من حواليه بجذور الشجر ليكون أشد تأجيجًا لناره، ليكني بذلك عن شدة هذه الحرب على آل البيت الذين استحر فيهم القتل في ساحها .

وقوله : **فأصبح ثرثار الهدية ألثغا**، الذي كنى به عن انطفاء نور الهدى الذي كان مشرقًا مضيئًا' أو عن مقتل الحسين، أو عن ضلال الأمة، فهي من الكنايات الغنية بالإيحاءات الثرة .

ويجمع بين الصورة الكنائية والتشبيه أحيانًا، مثل قوله :

فشعر حسينٍ في الدماء تموّها ترى الدمَ في تلك الذوائبِ مُشبها

عُصارةَ حِنّاءٍ بشيبٍ مُرجّل

حيث كنى بالشطر الأول عن مقتل الحسين، ثم شبّه الدمَ الذي ضُرّج به فلم يَشِنْهُ بل زاده حسنًا بالحناء التي يصبغ بها الشعر فيزداد جمالاً .

ومن الجدير بالذكر أن هناك من صوره صورًا لا تعتمد على الخيال، مثل قوله :

فتقذفهم بشمسك من شهاب . فتحصب من رماهم بالهضاب ...

وهكذا استطاع صفوان أن يرسم بتعبيراته العديد من الصور الفنية التي كان لها من الجودة أوفي حظٍّ ونصيب، وقد احتلت الصورة الاستعارية المرتبة الأولى فيها من حيث الكم، كما اعتمد أيضًا على الصورة التشبيهية والكنائية، فأجاد في شحنها جميعًا بالمشاعر والأحاسيس التي مارت بها نفسه وجاش بها وجدانه' وانعكس أثر ذلك كله على المتلقي تأثرًا وانفعالاً وإعجابا .

رابعًا : الموسيقا

من المعلوم أن الموسيقا أحد أهم أركان الشعر' وأبرز ميزاته التي يتميز بها عن النثر وعن سائر فنون القول .

وتعد موسيقا الشعر بمستوييها . الخارجي والداخلي . واحدة من أقوى الوسائل الفنية تأثيرًا، وأكثرها إيحاءً بالعالم الداخلي للشاعر' وبحقيقة المشاعر التي يشعر بها' والحالات النفسية التي تغشاه، ومدى قوته أو ضعفها .

ولقد فطن نقادنا القدامى إلى قدر الموسيقا وأهميتها في الشعر' فنجد ابن طباطبا يوجه من أراد قول الشعر إلى ضرورة التفكر في اختيار الوزن الملائم للمعاني التي تموج بها نفسه' ويسلس عليه القول فيه[١]' أما ابن عبد ربه فيقول : " وزعمت الفلاسفة أن النغم فضل بقي من المنطق لم يقدر

(١) ينظر : عيار الشعر . تأليف / محمد بن أحمد بن طباطبا العَلوي . شرح وتحقيق/ عباس عبد الساتر . مراجعة /نعيم زرزور . دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . ط٢ . ١٤٢٦هـ . ٢٠٠٥م . ص١١ .

اللسان على استخراجه، فاستخرجته الطبيعة بالألحان على الترجيع لا على التقطيع، فلما ظهر عشقته النفس، وحن إليه الروح. ولذلك قال أفلاطون: لا ينبغي أن تمنع النفس من معاشقة بعضها بعضا. ألا ترى أن أهل الصناعات كلها إذا خافوا الملالة والفتور على أبدانهم ترنموا بالألحان فاستراحت لها أنفسهم"(١).

بينما يعدّ ابنُ رشيق الوزن إضافةً إلى اللفظ' والمعنى' والقافية حد الشعر(٢) .

ونتيجةً لهذه الأهمية التي تحتلها الموسيقا في الشعر يحرص الشاعر الجيد على اختيار أشبه الأوزان بغرضه' وبالمعاني التي يريد أن يضخها في شراييِنه' ليس معنى ذلك مواءمة كل بحرٍ لغرض بعينه، فالشاعر العبقري قادر بموهبته الأصيلة على تطويع البحر الشعري أيًّا كان لغرضه الذي يأخذ فيه' ولكن هذا يستلزم موهبةً وجهدًا وصدقًا وبراعة أكثر من قِبَل الشاعر' أي أن الأمر يزداد أمامه صعوبة .

كذلك يحرص الشاعر الجيد على اختيار الألفاظ بل الأصوات الموحية التي تتآزر مع الموسيقا الخارجية في الإيحاء بمشاعره وأحاسيسه حتى يبلغ من قصيدته المرام، ويحدث في المتلقي الأثر المطلوب .

وبمطالعة مراثي التجيبي للحسين رضي الله عنه، نجد بعضها اتخذ شكل القصيدة التقليدية، وبعضها اتخذ شكلاً شبيها بالمسمط' الذي ذيله بأشطار من شعر امرئ القيس.

وعلى كلٍّ فالحديث عن الموسيقا في حسينيات التجيبي يشمل مستويين بارزين' هما: الأوزان، والقوافي .

أولاً : الأوزان :

استعمل صفوان أبحرًا شعرية مختلفة لتكون إطارًا موسيقيًّا لمراثيه الشعرية' فجاء بعضها من الوافر، مثل قصيدته التي مطلعها :

إذا جـــادت دمـــوعي فـــي انتحـــاب فمـــا دعـــوى الغمـــام فـــي الانســـكاب

وبحر الوافر ذو نغمة قوية " تهيئه للأداء العاطفي، سواءٌ أكان ذلك في الغضب الثائر والحماسة أم في الرقة الغزلية والحنين"(٣).

---

(١) العقد الفريد . تأليف الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي . تحقيق د / عبد المجيد الترحيني . دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . ط١ . ١٤٠٤هـ . ١٩٨٣م . ج٧ . ص٥ .

(٢) ينظر : العمدة . ج١ . ص١١٩ .

(٣) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها . ط٢ . الكويت . دار الآثار الإسلامية . ١٤٠٩هـ . ١٩٨٩م . ج١ . ص٤٠٦ .

ولذا فأحسن " ... ما يصلح هذا البحر في الاستعطاف والبكائيات وإظهار الغضب في معرض الهجاء والفخر، والتفخيم في معرض المدح"(١).

ونحن بالفعل نلمس في القصيدة هذا الغضب الثائر وتلك الحماسة الممزوجين بالحنين إلى ذكرى الحسين رضي الله عنه، وذلك مثل قوله :

يزيد فكم يزيد عليك حقدي رُزئتَ الفوز من حسن المآب

قتلتم سبطه قتل الأعادي لقد وفقتم لسوى الصواب

وسقتم أهله سوق السبايا أهذا ما قرأتم في الكتاب؟

تشكى بالغليل فأوردوه ولكن كل مطرود الذباب

ونلمس هذا الغضب الممزوج بالجزع في معرض الهجاء والسخط، حيث يقول :

أيوم الطف لا بوركت يوما جعلت الأسد نهبا للكلاب

جنابَك حيث ظُلّ بنو علي ألا لا در درك من جناب

ألا يا يوم عاشوراء راجع جوابي لا قدرت على الجواب

ويا نجل الدعيّ دعيّ حرب لقد لُففت نسلاً من كذاب

ونلمس الحنين في قوله :

أمولاي الحسين نداء عبدٍ عظيم الحزن فيك والانتحابِ

منحتك من بنات الفكر بكرًا أطار شرارَها زندُ اكتئابي

ولذا فقد أحسن الشاعر وأجاد في اختيار البحر القادر على مواكبة حالته النفسية واستيعاب مشاعره وأحاسيسه غضبًا، وبكاءً، وهجاءً، وحنينًا .

كما جاءت بعض مراثيه على بحر الرمل، "... وموسيقى الرمل خفيفة' رشيقةٌ' منسابة' وفيه رنةٌ يصحبها نوع من الملنخوليا . لا أعني بالملنخوليا الجنون . وإنما أعني بهذا الحرف [وقد كان مستعملاً عند القدماء] هذا الضرب العاطفيّ الحزين في غير ما كآبة' ومن غير ما وجع ولا فجيعةٍ ... أزعم أن هذه الملنخوليا المتأصلة في نغم الرمل تجعله صالحًا جدًّا للأغراض الترنمية الرقيقة' وللتأمل الحزين' وتجعله ينبو عن الصلابة والجد وما إلى ذلك "(٢).

---

(١) السابق . ذاتها .

(٢) السابق . ج١ . ص١٥٨ .

وإذا تأملنا قصيدة صفوان الرَّمَلية التي مطلعها :

انـــدُب الطـــفَّ وسِـــبط المصـــطفى بمـــراثٍ هـــي أســـرى مِـــن قِفـــا

وجدت مصداق ذلك، فشتان بين الحزن الوادع الذي يكتنف القصيدة هنا' والجزع الصاخب في المثال السابق، وأين قوله هنا :

يـــا بنـــي حـــربٍ جفـــوتم جـــدَّه أرســـــولُ الله يُجـــــزى بالجفـــــا؟

من قوله في قصيدة الوافر :

ويـــا نجـــل الـــدعيّ دعـــيّ حـــرب لقـــد لُففـــت نســـلاً مـــن كـــذاب

ولو استكملت قراءة باقي القصيدة لانسربت إلى نفسك منها روح غير التي فجأتك هناك' إنها روح بحر الرمل التي تتردد أصداؤها في جنبات القصيدة' فصفوان هنا حزين' منكسر' مستسلمٌ لحزنه' متأملٌ في مصائر الأمور' فوفق في اختيار البحر المناسب لحالته النفسية ومشاعره أيما توفيق .

وجاءت بعض قصائده على بحر الطويل، مثل قصيدته التي مطلعها :

ســـــلامٌ كأزهـــــار الرُّبـــــى يُتَنســـــم علـــى منـــزلٍ منـــه الهـــدى يُـــتَعلمُ

وهو بحر يتسع للكثير من المعاني، والبسيط قسيمه في ذلك ؛ ولذا نجد الطويل يكثر في الفخر' والوصف، والحماسة، والتاريخ(١) .

فهذا البحر يناسبه الإطناب والإفاضة والبوح والاستطراد في المعاني.

فإذا استقرأنا قصيدة صفوان السابقة وجدنا البيت الأول منها مثلاً يتضمن إرسال السلام وإلقاء التحايا العاطرة كأزهار الربى على منزل الرسول صلى الله عليه وسلم ومنازل آل البيت وقبورهم .

وفي البيت الثالث مثلاً، يتذكر يوم كربلاء ومشاهد القتال والقتلى وقد بدا مقتل كل واحد من آل البيت فيه وكأن عضوًا يقطع ويستأصل من جسد النبي . صلى الله عليه وسلم . الطاهر الشريف .

وعلى هذا النحو دومًا تجد البيت من بحر الطويل متروّيًا متريّثًا . إن صح التعبير . مستكثرًا من المعانى التي تضطرم في نفس الشاعر' ثم يكتنزها بداخله .

كذلك فلو استكملت استقراء هذه القصيدة أو قصيدتَيْه المذيلتين . وهما من البحر ذاته . لوجدت ثلاثتها تغص بمعاني الوصف، والفخر' والحماسة' بل إن اتساع البحر سمح بالمناقشة المنطقية' وسوق الحجج والبراهين الداعمة لموقف الشاعر والداحضة لحجج بني أمية' مثل قوله :

---

(١) ينظر : هوميروس ، الإلياذة . ترجمة / سليمان البستاني . مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة . المقدمة . ص٦٧ .
وينظر أيضًا : أسس النقد الأدبي عند العرب . د/ أحمد أحمد بدوي . دار نهضة مصر للطباعة والنشر . بدون تاريخ . ص٣٤٤.

أيـــا أمـــة الطغيـــان مـــالكمُ حـــسٌّ عـــلامَ بنـــاءُ الـــدِّينِ إن هُـــدم الأسُّ

أتَرجـــون إصـــباحًا وقـــد غابـــت الشـــمسُ وزلّ بكـــم عـــن ديـــنكم ذلـــك الـــرجسُ

وقوله :

هُـــمُ نبـــذوا الإدهـــانَ والغـــيُّ يُنبـــذ وقـــاموا بنصـــر الحـــقِّ لـــو جَـــدَّ مُنقـــذْ

وشـــبت لهـــم نـــارُ الـــوغى تتلـــذّذ بمـــــارجِ نـــــارٍ جمـــــرُهُ يَتأخّـــــذ

وقوله :

أبـــا خالـــدٍ والقـــدحُ فـــي الـــدينِ غـــائظُ أفـــي الحـــق أن تَحنـــو عليـــكَ الحـــوافظُ

وأنفـــــسُ آل اللهِ هِـــــيمٌ فـــــوائظُ سَـــمَتْ نحوهـــا أحقـــادُهمْ والحفـــائظُ

وقد سلك صفوان في قصيدتيه المشار إليهما سبيلاً موسيقيًّا غير سبيل القصيدة التقليدية' ألا وهو التسميط، والمسمّط من الشعر :هو " أن يبتدئ الشاعر ببيت مُصرّع' ثم يأتي بأربعة أقسمة على

غير قافيته' ثم يعيد قسيمًا واحدًا من جنس ما ابتدأ به، وهكذا إلى آخر القصيدة"(١).

غير أن وجود البيت المصرّع الذي في البداية ليس شرطًا في المسمط' بدليل بعض الأمثلة التي ذكرها صاحب العمدة لاحقًا أثناء التمثيل له(٢)' وهذا هو النهج الذي اتبعه صفوان في مسمطاته، غير أن الشطر الخامس ذا القافية الواحدة على امتداد القصيدة والمسمى بعمود القصيدة(٣)لم يكن لصفوان، بل آثر أن يجعل عمود قصيدته من شعر امرئ القيس' استثمارًا لشهرة قصائده، وقد أطلق الأندلسيون على هذه الظاهرة مصطلح "التذييل"' ويبدو أن هذا التذييل كان شائعًا بينهم، وقد عرف به عدد من الشعراء منهم حازم القرطاجني(٤).

وعل كل حال فلقد كان أبو بحر صفوان بن إدريس موفقًا في اختيار البحور الملائمة لمراثيه، ولمشاعره وأحاسيسه المختلفة التي أودعها هذه المراثي .

---

(١) العمدة . ج١ . ص١٧٨.

(٢) انظر السابق . ج١ . ص١٧٩ .

(٣) انظر السابق . ج١ . ص١٨٠.

(٤) ينظر : أديب الأندلس . ص٨٨ .

ثانيا : القافية

من المعلوم أن القافية تشمل " من آخر حرف في البيت إلى أول ساكن يليه من قبله' مع حركة الحرف الذي قبل الساكن"(١).

وأهم حروفها هو الرويّ الذي تنبني عليه القصيدة، ويتكرر في نهاية كل بيت.

وإذا استعرضنا مراثي صفوان وجدنا أنه اختار (الباء) رويًّا لإحداها' والتي مطلعها:

إذا جـــادت دمـــوعي فـــي انتحـــاب فمـــا دعـــوى الغمـــام فـــي الانســـكاب

وهو حرف انفجاري مجهور شديد، والمرثية . كما ذكرت من قبل . تموج بمشاعر الغضب والهجاء ذات النبرة العالية الحادة، وهذه المشاعر تتطلب رويًّا يتجاوب مع حدتها واندفاعها . لا سيما وقد وجدنا الشاعر في مواطن كثيرة يأبى الصبر وينكره ولا يريد إلا أن يستغرق ويذوب في مشاعره . فهو بحاجة إلى صوت قوي' منفجر' مجهور' شديد؛ ليتمكن من استيعاب هذا الشلال المتدفق من الغضب في البيت، ويضاعف في الوقت ذاته من الإيحاء بهذا الغضب، وأي حرفٍ أنسب لذلك من حرف الباء بصفاته السابقة' فكان ختام البيت بهذا الصوت(بي . بي . بي ... الخ القصيدة) تعبيرًا عن تيار الغضب العاتي داخل الأبيات . وهذا الروي يشهد للشاعر بالنبوغ والبراعة والتوفيق.

وبجوار الإيحاء بمشاعر الغضب يوحي ضبطُ هذا الحرف بالكسر بانكسار الشاعر ومكابدته لواعج الحزن الممض على مصارع آل البيت' ويعزز من هذا الإيحاء ويقويه(الرِّدف)صوت المد الذي قبل الروي؛ لذا فإن الشاعر كان موفقًا ومسدّدًا في اختيار رويه وقافيته.

أما المرثية التي مطلعها :

انـــدُب الطـــفَّ وسِـــبط المصـــطفى بمـــراثٍ هـــي أســـرى مِـــن "قِفـــا"

فهو فيها تسيطر عليه نزعة الحزن أيضًا، ولكنه حزن وادع هادئ غير صاخب' ومن ثم اختار الفاء الشفوية المهموسة رويًّا، ووصلها بصوت المد(الألف ويسمى الوَصل) ليكثف من هذا الإيحاء بالحزن الهادئ.

أما المسمطات' فقد حرص في تقفيتها على أن يخالف بين أحرف الروي في المقاطع المختلفة بحيث تكون مرتبة على ترتيب حروف المعجم.

وكأنه كان يحاول أن يجعل شعره في الحسين مصداقًا لقوله :

سأقضـــي عليـــه لوعـــة ومراثيـــا فـــأفني حيـــاتي والبُكـــا والقوافيـــا

---

(١) العمدة . ج١ . ص ١٥١ .

ليؤكد أن القوافي مهما كثرت وتنوعت وتعددت فحاله واحدة، وعهده ثابت، وحزنه ووفاؤه للحسين وآل البيت غير مُنبتّ، وكأن عنوان حاله قولُ المتنبي[١] :

وحـــالات الزمـــان عليـــك شـــتى وحالـــك واحـــدٌ فـــي كـــل حـــال

وتجدر الإشارة إلى أن مراثي صفوان لا سيما مسمطاته لم تسلم من "التضمين" : وهو تعلُّق القافية أو لفظةٍ مما قبلها بما بعدها[٢]، وهو عيب من عيوب الشعر عند القدماء[٣]، وقد ظهر هذا التضمين بكثرة في مسمطات صفوان تحديدًا في سبيل الربط بين عبارته الشعرية وعبارة امرئ القيس، ومن أمثلته جعلُ (كأنّ واسمها) في بيت وجعل خبرها في البيت التالي، في قوله :

وأيّ مُصـــابٍ عهـــدُه لـــيس يُنكـــثُ كـــأني إذا مـــا القـــوم عنـــه تحـــدثوا

لدى سمُرات الحي ناقف حنظل

وفي قوله :

لكـــي يُـــدركوا عنـــد ابـــن حـــربٍ تخلّصـــا كـــأن ســـنا رأس الحســـين علـــى العصـــا

منارةُ مُمسى راهبٍ متبتّل

إلى غير ذلك من الأمثلة .

وقد تميزت مراثي صفوان عمومًا بموسيقاها الداخلية النابعة من التوازن، والتقابل، وحسن اختيار الألفاظ الموحية، والأصوات مجهورها ومهموسها ...، والحركات... التي تضافرت جميعًا في إشاعة أجواءٍ موسيقية عذبة في جنبات كلٍّ منها، ووقعت على قيثارة الفن أجمل الألحان .

(١) شرح ديوان المتنبي للبرقوقي . دار الكتاب العربي . بيروت . لبنان .١٤٠٧هـ . ١٩٨٦م . ج٣ . ص١٥١.

(٢) انظر : العمدة . ج١ . ص١٧١.

(٣) انظر : السابق . ج١ . ص١٦٤.

خاتمة

تمخضت هذه الرحلة مع مراثي صفوان بن إدريس في الحسين رضي الله عنه وآل البيت عن العديد من النتائج، أهمها الكشف عن امتلاك الشاعر ملكة أصيلة، وموهبة مواتية، وعبقريةً شعرية، وتميزُ مراثيه بالصدق الواقعي والفني الذي عكسته كل ألفاظه وتعبيراته، ورغم انتمائها جميعًا إلى غرض الرثاء فقد هتكت بعض معانيها حجبًا رقيقة بينه وبين أغراض أخر، كما لمسنا فيها أيضًا تنوعَ منازل الأسلوب بين القوة والرقة تبعًا لعاطفة الشاعر، وكذلك سعةَ خيال الشاعر وخصوبته، وتمكنه من ناصية البيان، واستثماره العديد من وسائل التصوير في مراثيه بمهارة وبراعة، كما تنوعت الأوزان والأنماط الموسيقية التي جاءت عليها، وكان من أبرزها المسمّطُ الذي كان له معه شأن خاص .

المصادر والمراجع

. القرآن الكريم.
. صحيح مسلم . دار طيبة . الرياض . الطبعة الأولى .١٤٢٧هـ . ٢٠٠٦م.
. فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني . محب الدين الخطيب' محمد فؤاد عبد الباقي' قصي محب الدين الخطيب . دار الريان للتراث . القاهرة . ط١. ١٤٠٧هـ . ١٩٨٦م.

***

. الإحاطة في أخبار غرناطة . تأليف لسان الدين ابن الخطيب . شرح وضبط وتقديم أ.د/يوسف علي طَوِيّل . دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . ط١.١٤٢٤هـ . ٢٠٠٣م .
. أدب الشيعة إلى نهاية القرن الثاني الهجري . د/ عبد الحسيب طه حميدة . الزهراء للإعلام العربي . مطبعة السعادة بمصر . ط٢ . ١٣٨٨هـ . ١٩٦٨م.
. أديب الأندلس أبو بحر التجيبي . تأليف / محمد بن شريفة . ط١ . ١٤٢٠هـ . ١٩٩٩م .
. أسس النقد الأدبي عند العرب . د/ أحمد أحمد بدوي . دار نهضة مصر للطباعة والنشر . بدون تاريخ.
. الأعلام . خير الدين الزركلي . دار العلم للملايين . بيروت . لبنان . ط١٥. أيار /مايو . ٢٠٠٢م.
. الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني . وضع حواشيه / إبراهيم شمس الدين . دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . ط١ .١٤٢٤هـ . ٢٠٠٣م .
. التكملة لكتاب الصلة لابن الأبّار القضاعي البلنسي . تحقيق د/ عبد السلام الهراس . دار الفكر . بيروت . لبنان . ١٤١٥هـ . ١٩٩٥م .
. جمهرة الأمثال لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري . د/أحمد عبد السلام' أبو هاجر محمد سعيد بن بسيوني زغلول . دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . ط١. ١٤٠٨هـ . ١٩٨٨م.
. ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي . تحقيق/ محمد عبده عزام . الطبعة الثالثة . دار المعارف . القاهرة . بدون تاريخ . المجلد الرابع.
. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنتريني . تح/ د إحسان عباس . دار الثقافة . بيروت . لبنان . ١٤١٧هـ . ١٩٩٧م.
. الروض المعطار في خبر الأقطار. تأليف/محمد بن عبد المنعم الحِمْيري . تحقيق د/ إحسان عباس . مكتبة لبنان . بدون .
. سير أعلام النبلاء للإمام أبي عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن قايماز الذهبي(٦٧٣.٧٤٨هـ) . رتبه /حسان عبد المنان . بيت الأفكار الدولية . لبنان . ١٤٢٤هـ . ٢٠٠٤م.
. شرح ديوان المتنبي للبرقوقي . دار الكتاب العربي . بيروت . لبنان .١٤٠٧هـ . ١٩٨٦م .

. شرح ديوان الفرزدق . ضبط معانيه وشروحه وأكملها / إيليا الحاوي . دار الكتاب اللبناني . مكتبة المدرسة . بيروت . لبنان . ط١ . ١٩٨٣م.

. شعر صفوان بن إدريس . جمع ودراسة وتحقيق د/هالة عمر إبراهيم الهواري . كلية الآداب . جامعة حلوان . إصدارات مركز البابطين لتحقيق المخطوطات الشعرية برقم٢٢ . دار الوفاء . الطبعة الأولى . ٢٠١٢م.

. الشعر والشعراء لابن قتيبة . تحقيق وشرح الشيخ/ أحمد محمد شاكر . دار المعارف . القاهرة.

. العقد الفريد . تأليف الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي . تحقيق د / عبد المجيد الترحيني . دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . ط١ . ١٤٠٤هـ . ١٩٨٣م.

. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده . تأليف أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي(٣٩٠هـ . ٤٥٦هـ) . حققه وفصله وعلق حواشيه/ محمد محيي الدين عبد الحميد . دار الجيل . بيروت . لبنان . ط٥ . ١٤٠١هـ . ١٩٨١م.

. عيار الشعر . تأليف / محمد بن أحمد بن طباطبا العَلوي . شرح وتحقيق/ عباس عبد الساتر . مراجعة /نعيم زرزور . دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . ط٢ . ١٤٢٦هـ . ٢٠٠٥م.

. في الأدب الإسلامي قضايا ومفاهيم . أ.د/ أحمد محمد علي حنطور . ط٢ . مطبعة التركي . طنطا . ١٤٢٥هـ . ٢٠٠٥م.

. كتاب الصلة لابن بَشكُوال(ت٥٧٨هـ)ومعه كتاب صلة الصلة لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم الغرناطي(ت٧٠٨هـ) . تحقيق/شريف أبو العلا العدوي . مكتبة الثقافة الدينية . ط١. ١٤٢٩هـ . ٢٠٠٨م . بور سعيد' القاهرة.

. لسان العرب لابن منظور . تحقيق/عبد الله علي الكبير' محمد أحمد حسب الله' هاشم محمد الشاذلي . دار المعارف . القاهرة .

. المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها . عبدالله الطيب . ط٢ . الكويت . دار الآثار الإسلامية . ١٤٠٩هـ . ١٩٨٩م.

. معجم الأدباء لياقوت الحموي الرومي . تحقيق د/إحسان عباس . دار الغرب الإسلامي . بيروت . لبنان . ط١ . ١٩٩٣م .

. معجم البلدان لياقوت الحموي . دار صادر . بيروت . ١٣٩٧هـ . ١٩٧٧م .

. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب . تأليف الشيخ أحمد بن محمد المقّري التلمساني . تحقيق د/ إحسان عباس . دار صادر . بيروت . ١٣٨٨هـ . ١٩٦٨م.

. هوميروس، الإلياذة . ترجمة / سليمان البستاني . مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة . بدون.

Sources and references

-The Holy Quran.
-Fath al-Bari،Sahih al-Bukhari explaining by the son of Hajar al-ashkelani-Moheb al-Din al-Khatib‘ Mohammed Fouad Abdul Baqi‘ Qusay Moheb al-Din al-Khatib-Dar Al-Rayyan for heritage-Cairo first edition- ١٤٠٧ Ah-١٩٨٦ ad.
-Sahih Muslim - Dar Taiba-Riyadh-first edition-١٤٢٧ Ah-٢٠٠٦ ad.

***

-Adib Al-Andalus Abu Bahr al-tojaibi-written by / Mohammed bin Sharifa-٢nd edition-١٤٢٠ Ah-١٩٩٩ ad
-Biographies of famous nobels by Imam Abu Abdullah Shams al-Din Mohammed bin Ahmed bin qaymaz Al-Thahabi (٦٧٣-٧٤٨ Ah) – arranged by Hassan Abdel Mannan-House of international ideas-Lebanon-١٤٢٤ Ah-٢٠٠٤ ad.
-Book of link by Ibn bashkowal (died ٥٧٨h)and book of link of the link by Aby Jaafar Ahmed bin Ibrahim al-Gharnati (died ٧٠٨h) - investigation/Sharif Abual-Ola al-Adawi-library of religious culture-١st edition ١٤٢٩h-٢٠٠٨-port said‘ Cairo.
-Briefing in Gharnata news - written by Lissan al-Din ibn al-Khatib-explanation‘ tuning and presentation of Dr. Youssef Ali Towaiel-House of scientific books-Beirut-Lebanon- first edition-١٤٢٤ Ah - ٢٠٠٣ ad.
-Explanation of the Diwan of farazdaq-control of its meanings and annotations and completed by Eliiah al-Hawi - Lebanese Book House-School Library-Beirut-Lebanon-١st edition -١٩٨٣ ad.
-Guide to the understanding of Arab poetry and its industry-Abdullah al-Tayeb-٢nd edition-Kuwait-House of Islamic antiquities-١٤٠٩ Ah - ١٩٨٩ ad
-In Islamic literature issues and concepts-Dr. Ahmed Mohammed Ali hantour-٢nd edition-Turkish press-Tanta-١٤٢٥ Ah-٢٠٠٥ ad.
-Lexicon of countries by Yaqoot Hamoui-Dar Sader-Beirut-١٣٩٧ Ah-١٩٧٧ ad.
-Lexicon of writers by Yaqoot Hamoui Rumi-investigation by Dr. Ihsan Abbas-House of the Islamic west-Beirut-Lebanon-١st edition-١٩٩٣.
-Literature of Al-Shiaa to the end of the second century AH-Dr. abdulhassib Taha Hamida-Zahra Arab media-happiness Press in Egypt- ٢nd edition- -١٣٨٨ Ah-١٩٦٨ ad.
-Poetry and poets of Ibn Qutayba-investigation and explanation of Sheikh / Ahmed Mohammed Shaker - Dar Al-Maarif-Cairo.
-Poetry calibre - written by / Mohammed bin Ahmed bin Tabataba al-Alawi-explanation and investigation by Abbas Abdel Sater-review /Naim zarzour-House of scientific books-Beirut-Lebanon-٢nd edition-١٤٢٦h-٢٠٠٥.

-Smelling the arroma from the wet branch of Al-Andalus - written by Sheikh Ahmed bin Mohammed Al-maqarri Al-telmsani-investigation of Dr. Ihsan Abbas-Sader House-Beirut-١٣٨٨ Ah-١٩٦٨ ad.

-The Arab tongue of Ibn Manthour- investigted by Abdullah Ali al-Kabir‘ Mohammed Ahmed Hassaab- Allah‘ Hashem Mohammed al-Shazli - Dar Al-Maarif-Cairo.

-The aromatic garden about the news of countries by Mohammed bin Abdul Moneim Al-Hemiary-investigation of Dr. Ihsan Abbas-library of Lebanon-without history..

-The mayor in advantages‘ literature and criticism of poeytry -written by Abu Ali al-Hassan bin Rasheek Al-kairouani Al-azdi (٣٩٠ Ah-٤٥٦ ah) - achieved، separated and commented footnotes by Mohammed Mohiuddin Abdul Hamid-House of generation-Beirut-Lebanon-٥th edition-١٤٠١ Ah-١٩٨١ ad.

-The poetry of Safwan bin Idris-collection‘ study and achievement of Dr. Hala Omar Ibrahim al-Hawari-Faculty of Arts-Helwan University-publications of the Babetin Center for the realization of poetic manuscripts No. ٢٢-Dar Al-Wafaa-first edition-٢٠١٢.

-The unique necklace - written by Al-Faqih Ahmed bin Mohammed bin Abd Rabbo Al-Andalusi- investigated by Dr. Abdul Majid Al-turhini-House of scientific books-Beirut-Lebanon-١st edition-١٤٠٤ Ah-١٩٨٣ ad.

Al-Thakhira in the advantages of the people of the island for Ibn Bassam Al-shantarini- /checked by Dr. Ihsan Abbas-Dar Al-thaquafah-Beirut-Lebanon-١٤١٧ Ah-١٩٩٧ ad.

Bases of literary criticism authored by Dr. Ahmad Ahmed Badawy‘ Egypt development house for printing aand puplishing.

Clarification in the science of rhetoric of Khatib al-Qazwini-the development of his footnotes / Ibrahim Shams al-Din-House of scientific books-Beirut-Lebanon-١-١٤٢٤ Ah-٢٠٠٣.

Collection of Proverbs of Abu Hilal Al-Hassan bin Abdullah bin Sahl al-Askaary-Dr / Ahmed Abdul Salam‘ Abu Hagar Mohammed Said Bin Bassiouni Zaghloul-House of scientific books-Beirut-Lebanon ١st edition-١٤٠٨ Ah-١٩٨٨ ad.

The Epic of Ilyad-translated by Soliman al-Bostany‘ Hindawy foundation for learning and culture.

The supplement of the Sella book authered by Ibn al-Abbar al-Kodaiy al-Balancy –checked by Dr/ Abdul Salam al- Harras-the House of Idea's-Beirut-Lebanon-١٤١٥ ah-١٩٩٥ ad.

فهرس المحتويات

م	العنوان	رقم الصفحة
	ملخص البحث	١٩١١
	. المقدمة	١٩١٢
	. تمهيد(حول الشاعر)	١٩١٤
	اسمه ونسبه	١٩١٤
	مولده ونشأته	١٩١٤
	ثقافته وحبه للأدب	١٩١٤
	نتاجه الأدبي	١٩١٥
	وفاته	١٩١٦
	. الفصل الأول : الدراسة الموضوعية	١٩١٧
	. الحزن والأسى	١٩١٩
	. هجاء بني أمية وتوعدهم	١٩٢٤
	. موقف الرسول وآل البيت والراشدين	١٩٢٩
	. موقف الشاعر من يوم كربلاء	١٩٣٢
	. مدح الحسين	١٩٣٥
	. الفصل الثاني : الخصائص الفنية	١٩٣٨
	. أولاً : الأفكار والمعاني	١٩٣٩
	. ثانيًا : الألفاظ والأساليب	١٩٤٣
	. ثالثًا : الخيال والتصوير	١٩٥٢
	. رابعًا : الموسيقا	١٩٥٥
	. الأوزان	١٩٥٦
	. القوافي	١٩٦٠
	. خاتمة	١٩٦٢
	. فهرس المصادر والمراجع	١٩٦٣
	. فهرس المحتويات	١٩٦٧